بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة النحل وهي مكية.

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

{أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[سورة النحل:١].

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ}[سورة الأنبياء:١]، وقال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ}[سورة القمر:١]. وقوله: {فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} أي: قرُبَ ما تباعد فلا تستعجلوه، كما قال تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [سورة العنكبوت:٥٣-٥٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}، مَن نظر إلى صيغة الماضي وأراد أن يفسر الكلام بمقتضاها قال: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ} يعني التكاليف، أي ما يؤمر الله به عباده، من الحلال والحرام، ولكن هذا وإن قال به بعض السلف مراعياً لظاهر اللفظ إلا أنه بعيد؛ وذلك أن أحداً لم يستعجل هذه الفرائض والأحكام والأمر والنهي حتى ينزل {فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}، والقاعدة: "أنه يعبر بالماضي عن المستقبل إيذاناً بتحقق الوقوع"، فما كان متحقق الوقوع بلا مرية فقد يعبر عنه بالماضي، {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ}، فهو آت لا محالة، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}[سورة الأعراف:٥٠]، {وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ}[سورة الأعراف:٤٨]، {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا}[سورة الأعراف:٤٤]، {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...} [سورة غافر:٤٩]، وما أشبه ذلك وهو كثير في القرآن، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} [سورة ق:٢٠]، كل هذا عبر فيه بالماضي عن أمر في المستقبل، ولا إشكال في هذا، وهو الذي عليه عامة المفسرين، وبعضهم فسره بهذا الأمر المنتظر أي: القيامة، كما دل عليه ظواهر القرآن في مواضع متعددة، {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [سورة الشورى:١٨] يعني: الآخرة، الساعة، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [سورة النازعات:٤٢]، كانوا كثيراً ما يسألون عنها، ويستعجلون بها، وممن فسروه بأنه يتعلق بأمر مستقبل عُبر عنه بالماضي يقول: هذا الذي استعجلوه هو العذاب، كما قال الله -عز وجل-: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} [سورة الحـج:٤٧]، {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} [سورة الرعد:٦]، وقالوا: {عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا} [سورة ص:١٦] يعني: نصيبنا، {قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة ص:١٦]، وما شابه ذلك في كتاب الله -عز وجل-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رحمه الله- والأقرب -والله أعلم- أن قوله: {أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ} [سورة النحل:١] أي: الساعة، فهي قريبة، والله يقول: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا} [سورة الأحزاب:٦٣] وكذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((بعثت أنا والساعة كهاتين))[١].

وروى ابن أبي حاتم عن عقبة بن عامر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء ثم ينادي منادٍ فيها: يا أيها الناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم، ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه))، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً)) قال: ((ويشتغل الناس))[٢].

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُواْ أَنّهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ أَنَاْ فَاتّقُونِ} [سورة النحل:١-٢].

يقول تعالى: {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرّوحِ} **أي: الوحي، كقوله:** {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} [سورة الشورى:٥٢]، **وقوله:** {عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} **وهم الأنبياء، كما قال تعالى:** {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [سورة الأنعام:١٢٤]، **وقال:** {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ}[سورة الحج:٧٥]، **وقال:** {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [سورة غافر:١٥-١٦]. **وقوله:** {أَنْ أَنْذِرُوا} **أي: لينذروا** {أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} **أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.**

قوله: {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرّوحِ} أحسن ما فسر به هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو أنه الوحي، الله -عز وجل- سمى الوحي بالروح؛ لأنه يحصل به حياة الأرواح والنفوس، كما تحصل حياة الأبدان بالطعام والشراب، كقوله: {لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} [سورة غافر:١٥]، {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ}[سورة الأنبياء:٤٥] ينزلهم بالروح للإنذار، لينذروا بهذا الروح الذي أنزله، وقوله -تبارك وتعالى-: {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ} [سورة النحل:٢] "من" هذه يمكن أن تكون بيانية، يعني بأشياء، ويمكن أن تكون تبعيضية، {يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ}، وتكون ابتدائية كقوله: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [سورة الرعد:١٧]، أي مبتدأً.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}[سورة النحل:٣-٤].

---

١ - رواه البخاري، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بعثت أنا والساعة كهاتين)، برقم (٦١٣٩)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (٢٩٥١)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

٢ - رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٤٣١٣)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٥٠٠٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، بل {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [سورة النجم:٣١] ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان، {مِن نّطْفَةٍ} أي: مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً، كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً} [سورة الفرقان:٥٤-٥٥]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [سورة يس:٧٧-٧٩]، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش -رضي الله تعالى عنه- قال: بصق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في كفه، ثم قال: ((يقول الله تعالى: ابن آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟))[٣].

قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}، خلقاً متلبساً بالحق، أي ليس عبثاً، وللآية نظائر في القرآن، {خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}، النطفة معروفة، وتقال للشيء القليل من الماء، {خَصِيمٌ مُّبِينٌ} يحتمل أن يكون المعنى أنه خصيم أي يخاصم في ربه -تبارك وتعالى-، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، يجادل في وحدانية الله، ويكذب رسله، وهذا هو الأقرب -والله أعلم- في تفسيرها والذي عليه عامة أهل العلم. والمعنى الآخر الذي تحتمله هو {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} أي: يخاصم ويجادل، ويبين عما في نفسه، فهو شديد الخصومة، وكثير الخصومة، ولو قيل: إن الآية تصدق على هذا وهذا، لم يكن ذلك بمستبعد، والله أعلم.

{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}[سورة النحل:٥-٧].

يمتنّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ} وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى فإنها تكون أمدّ خواصر وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسْنمةً، {وحِينَ تُرِيحُونَ} أي: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى، {وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ} وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها، {إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ} وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، كقوله: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا

---

٣ - رواه ابن ماجه، كتاب الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت، برقم (٢٧٠٧)، وأحمد في المسند (٣٨٧/٢٩)، برقم (١٧٨٤٤)، وقال محققوه: إسناده حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١٤٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} [سورة المؤمنون:٢١-٢٢]، وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ}[سورة غافر:٧٩-٨١]؛ ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم: {إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ}[سورة يس:٧١-٧٢]، وقال: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ} [سورة الزخرف:١٢-١٣]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} أي: ثياب، {وَمَنَافِعُ} ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة.

قوله: {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا} الأنعام: أكثر ما يطلق ذلك على الإبل، وهذا اللفظ أيضاً يصدق على الأنواع التي ذكرها الله -عز وجل- في سورة الأنعام: الإبل والبقر والغنم بنوعيه، كلها يقال لها أنعام، قال: {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن الدفء الثياب، يعني ما يصنع من أوبارها وأصوافها وأشعارها مما يحصل به الدفء، ويتقي فيه الإنسان البرد، وهذا هو الظاهر، وبعضهم حمل الدفء على معنىً أوسع من هذا، فحمله على ما يحصل منها من مشروب ومأكول، ونحو ذلك، وليس هذا هو المتبادر عند إطلاق هذه اللفظة، والقرآن إنما تُحمل معانيه على الظاهر المتبادر، لا سيما وأن الله -عز وجل- قال بعده: {وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، فما يستخرج منها من الألبان والأزباد وما شابه ذلك مما يستخرجونه من ألبانها كالأجبان والأَقِط ونحوها، فإن ذلك داخل في قوله: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، وبقية الأشياء كأكل لحومها ذكرها الله -عز وجل- بالمنافع، هذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، {وَحِينَ تَسْرَحُونَ} يعني: وقت الرواح هو في آخر النهار من المرعى، وقدّمه -مع أن الخروج حينما تسرح إلى المراعي يكون في أول النهار- لأنه أكمل في الحالة والصورة، فهي تغدو وتسرح وهي ضامرة البطون، ثم ترجع في آخر النهار وهي أمَدّ ما تكون خواصر وأملأ ما تكون ضروعاً، وهذا إنما تقوم عليه معايشهم، ومن يزاولون هذه الأنعام اليوم يطربون لرؤية هذه البهائم وهي ممتدة الخواصر، وقد امتلأت ضروعها بالألبان، فهذا شيء يحرك نفوسهم ويبهجها ويطربها؛ ولهذا -والله أعلم- قدم الرواح وهو الرجوع في آخر النهار على الذهاب في أوله، فالرواح يكون من المرعى إلى حظائرها والأماكن التي يكون بياتها فيها؛ ولهذا يسمى المكان الذي تبيت فيه المراح؛ لأنها تروح إليه أو تُراح إليه في وقت العشي، فهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير ومشى عليه كثير من المفسرين، {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ} يقولون: حينما تكون في حظائرها الناس لا يشاهدونها ولا ينظرون إليها ونحو ذلك، وهكذا حينما تكون متفرقة في المرعى، لكن عندما تخرج مجتمعة، أو حينما تكون راجعة تكون مجتمعة، سواء كانوا من أهل البادية أو من أهل القرى، فأهل البوادي تجتمع عندهم في المراح، وتخرج سارحة وهي مجتمعة، ثم بعد ذلك تتفرق في المرعى وهم لا يشاهدونها في المرعى أصلاً، ثم إذا جاءت في العشي كانت مجتمعة مسرعة وترجع من نفسها، فلو أن الراعي غفل عنها، أو نام، أو أصيب بشيء، تأتي لوحدها وتعرف طريقها، فتأتي مسرعة مندفعة، ثم تتفرق في الحظائر، وتعرف كل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واحدة بيت أهلها، فتنطلق إليه مسرعة، فتتفرق، فمنظرها حينما تكون ذاهبة وآتية مجتمعة، {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، فذكر هذين الحالين، ومن أهل العلم من حمل الجمال {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ} على معنىً آخر وهو {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ} أي: تتجملون أنتم بها، بمعنى أنكم تترفعون، وإنما تكون مكانة الإنسان ومنزلته في نظر الكثيرين بما له من مال وأنعام فيحصل لهم بذلك رفعة ومكانة في نفوس كثير من الناس، وعند أنفسهم أيضاً، فملكية هذه الأنعام تعود على صاحبها بشيء من الرفعة، وأشعار العرب كثيرة في هذا، وتفاخرهم بما عندهم من الأنعام، وبعض أهل العلم حمل الجمال على ما يحصل لهم من التجمل بما ملكوا من هذه الأنعام؛ لأنها هي أموالهم، فهذه أموال ظاهرة يراها الناس، بخلاف الأموال الباطنة التي لا يطلع عليها أحد.

{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة النحل:٨].

هذا صنف آخر مما خلق -تبارك وتعالى- لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل[٤].

ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل[٥]**، وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله تعالى عنهما- قالت: نحرنا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة**[٦].

هذه الأحاديث التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- باعتبار أن من أهل العلم من فهم أن الخيل لا يجوز أكلها؛ لأن الله لما ذكر الأنعام قال: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} [سورة النحل:٥]، وذكر الخيل مع البغال والحمير ولم يذكر الأكل، وإنما قال: {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}، ما قال: {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، فقالوا: إن حكم الخيل هو حكم البغال والحمير، لا يؤكل منها، وإنما للركوب والزينة فقط، فاحتجوا بأمرين من هذه الآية، الأول: دلالة الاقتران، قرنها مع البغال والحمير، والثاني: أن الله لم يذكر الأكل، وإنما ذكر الركوب والزينة بخلاف الأنعام، فقالوا: فرَّق بينهما، والواقع أنه لا دليل في واحد منهما، أما دلالة الاقتران فهي دلالة ضعيفة عند الأصوليين لا يحتج بها، وحينما ذكر الله -عزوجل- الركوب والزينة، يمكن أن يحتج بأنه سبحانه لم يذكر في الآية السابقة الركوب، وعليه يمكن أن يقال: لا يجوز ركوب الأنعام بما في ذلك الإبل، والعلماء اختلفوا في البقر هل

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب لحوم الخيل، برقم (٥٢٠١)، ومسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب في أكل لحوم الخيل، برقم (١٩٤١).

٥ - رواه أبو داود، كتاب الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل، برقم (٣٧٨٩)، وأحمد في المسند برقم (١٤٨٤٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وقال الألباني: وهذا على شرط مسلم، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١٣٨/٨).

٦ - رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب النحر والذبح، برقم (٥١٩٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يجوز الحمل عليها والركوب؟ وفي الحديث: "الرجل الذي كان يركب بقرة فقالت: إني لم أخلق لهذا"[٧]، فأخذ منه بعض أهل العلم أن البقر لا يجوز ركوبها ولا الحمل عليها، ولكن هذا يختلف، فمن الأبقار ما لا يحتمل ذلك، ومنها ما تكون بهيئة عظيمة كما في بعض أنواعها وفصائلها كالجواميس ونحوها يحمل عليها الأثقال، ويركب عليها الناس في بعض البلاد ولا يضرها، فالشاهد أنه لما ذكر الأنعام ما ذكر الركوب، مع أنه لا إشكال في ركوبها إطلاقاً، والآيات واردة في هذا المعنى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ}[سورة المؤمنون:٢١-٢٢]، {وَعَلَيْهَا} يعني: الأنعام، فذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ركوبها، وهكذا في قوله: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ} [سورة غافر:٧٩-٨٠]، تنتقلون إلى البلاد البعيدة، تحملون الأثقال، وتقطعون المسافات، ولم يذكر في آية النحل الركوب في الأنعام، فإذا أردنا أن نحتج أو نستدل على هؤلاء الذين قالوا: إن الخيل لا يجوز أكلها بناءً على أن الله ذكرها هنا وذكر المنفعة التي تحصل وتستخرج منها وهي الركوب والزينة، فنقول: هناك لم يذكر الركوب، فلا يقال: لا يجوز ركوب الأنعام؛ لأن الله لم يذكره، فذِكْر بعض المنافع في موضع وترْك بعضها لا يعني أن ذلك ليس من منافعها وأنه لا يسوغ ولا يجوز، ووردت أحاديث تدل على جواز أكل لحوم الخيل، والله -تبارك وتعالى- في هذه الآية لما ذكر الأنعام قال: {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، ذكر هذين الوقتين، والجمال فسر بامتداد خواصرها وامتلاء ضروعها، والمعنى الثاني {جَمَالٌ} أنكم أنتم تتجملون؛ لأن هذه أموال ظاهرة ويراها الناس، ولما ذكر الخيل والبغال والحمير قال: {لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، {وَزِينَةً} يعني: تتزينون بركوبها، ولا شك أن أجمل هذه المذكورات جميعاً هو الخيل، ولما ذكر الله -عز وجل- هذه الثلاثة الخيل والبغال والحمير ذكرها مرتبة من الأعلى إلى الأدنى، فالخيل أجمل وأشرف ثم البغال ثم بعد ذلك الحمير، ومن حيث القوة والتحمل أقواها الحمار، ولهذا يكنى بأبي صابر، ثم يليه بعد ذلك البغل، وهو قوي جداً أقوى من الخيل من ناحية التحمل، ثم بعد ذلك يأتي الخيل، فهي بالنسبة للقوة مرتبة من الأدنى إلى الأعلى، وبالنسبة للجمال والشرف مرتبة من الأعلى إلى الأدنى، وبالمناسبة فقد ظهرت الاحتفالات التي تسمى مزايين الإبل، وهذه ليست مسابقة فقط بين الجميلات من الإبل بل يجمع لها الأموال الهائلة، فبعض القبائل جمعت أكثر من سبعين مليوناً، وبعضهم رصف طريقاً مُضاءً في الصحراء إلى المكان الذي تقام فيه المسابقة مع أن المسافة شاسعة، وسمعت أن بعضهم يحمِّل السيارة الكبيرة أغناماً ويدور على المخيمات ويعطيهم، ولا يمر أحد إلا ويدعى من الخيام للحم إن شاء أن يأكل مما صنع، وإن شاء أن يأخذه نيئاً لم يطبخ، فتصرف أموال هائلة، وسيارات وهدايا بأغلى الأثمان على الجميلة من الإبل، ولا فخر في هذا، فالإبل لا تعرف بالجمال، إنما الجمال في الخيل، وما ذكره الله -عز وجل- فيها من الجمال على معنيين -حينما تكون سارحة أو راجعة-: امتداد خواصرها أو امتلاء ضروعها، وليس في هيئتها

---

٧ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لو كنت متخذا خليلا))، برقم (٣٤٦٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، برقم (٢٣٨٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أنها جميلة تعشقها الأنظار ونحو ذلك إطلاقاً، وما ذكره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- أنها جمال لأهلها بمعنى أنهم يرتفعون بامتلاك الأنعام؛ لأنها أموال العرب، والمقصود أن مثل هذه التصرفات خلاف الدين، فإن الله -عز وجل- نهى عن إضاعة الأموال، ثم هذه الأموال المصروفة لا فائدة منها للبهائم ولا للآدميين، ولا للمجتمع، وإنما فيها تفكيك المجتمع، وإحياء القبليات والنعرات الجاهلية، حتى عند الأطفال، فهم يتناقلون أشعاراً نبطية، والرموز المكتوبة على السيارات، وعلى الشوارع وعلى الجدران ترمز إلى قبائل، ونحن إذا شاهدنا تلك الرموز لا نعرفها، لكن نسمع من الصغار من يقول: هذا القبيلة الفلانية، وهذه القبيلة الفلانية، فضلاً عن الكبار، فكيف يفتخر بالقبيلة وما أشبه ذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((دعوها فإنها منتنة))[٨]، وقال: ((أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟))، لما قال رجل: يا للمهاجرين، وقال آخر: يا للأنصار[٩]، مع أن هذه أسماء شرعية، فهذا رد للناس إلى مآثر الجاهلية وافتخارها بالأحساب والأنساب، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن ذلك مما يبقى في هذه الأمة، لا يتركونه من أمر الجاهلية، وهذا يعيدها فتيّة، وأصبح كثير من الناس يتناقلون في جوّالاتهم قصائد هذه القبيلة في هذه القبيلة، وهذه القبيلة في هذه القبيلة، ثم إن الخيل معروفة بالجمال وهي أحق وأولى بأن يقام لها مزايين، ولا تُهوّن من أمر الحمير والبغال، فربما تحتاج أيضاً أن يقام لها مزايين، فالله -عز وجل- ذكرها كلها وذكر الزينة بعدها، فضلاً عن البقر والشياه وغيرها، والقبائل الذين يربون البقر، ويربون الأغنام وليسوا بأهل إبل، هؤلاء تجدهم يتنافسون على الأقل فيما بينهم بمزايين البقر أو مزايين الغنم، فتخصيص الإبل بالمزايين تخصيص بلا مخصص، يعني بلا موجب، وتفريق بلا مفرق، وإلا فكما قيل:

ما ثم غير مشيئة قد رجحت *** مثلاً على مثل بلا رجحان

فمثل هذه الأشياء يجب إنكارها وبيان خطر هذا على المجتمع، وعلى الأمة، ولسنا بحاجة إلى مزيد من الفرقة والانقسام، والله المستعان.

وقوله: {وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}، كثير من المفسرين يقولون: المقصود به: من المخلوقات من دواب البحر، والوحش، والديدان، والكائنات الحية بجميع أنواعها، مما نعرفه وما لا نعرفه، وما يمكن مشاهدته بالعين المجردة وما لا يمكن مشاهدته، فهذه عوالم لا زال الناس يكتشفون منها أشياء وأشياء إلى يومنا هذا، وبعض أهل العلم كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- يقول: {وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} يعني من المركوبات؛

---

٨ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة المنافقون:٦]، برقم (٤٦٢٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، برقم (٢٥٨٤).

٩ - رواه البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة المنافقون، برقم (٤٦٢٢)، من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- ولفظه: ((ما بال دعوى جاهلية))، قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: ((دعوها فإنها منتنة)) الحديث، ومسلم بلفظ::((ما بال دعوى الجاهلية))، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، برقم (٢٥٨٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأن السياق في ذكر المراكب، {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} من المركوبات، يقول: وذلك مثل القطارات والطيارات والسيارات وغير ذلك من المراكب المتنوعة.

{وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}[سورة النحل:٩]، لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}[سورة البقرة:١٩٧]، وقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ} [سورة الأعراف:٢٦]، ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبيّن أن الحق منها ما هي موصلة إليه، فقال: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} كقوله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} [سورة الأنعام:١٥٣]، وقال: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} [سورة الحجر:٤١].

قال مجاهد في قوله: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} قال: طريق الحق على الله، وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} يقول: وعلى الله البيان، أي يبين الهدى والضلالة، وكذا رَوى علي بن أبي طلحة عنه، وكذا قال قتادة والضحاك، ولهذا قال تعالى: {وَمِنْهَا جَائِرٌ} أي: حائد مائل زائغ عن الحق.

قوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}، {قَصْدُ} هذه صفة، و{السَّبِيلِ} موصوف، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، يعني السبيل القاصدة، {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة:٦]، {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}، فحينما يقال: قصد السبيل يعني السبيل القاصد، يعني: أنها توصل إلى الله -عز وجل-، والسبل: هي بُنيّات الطريق، كما خط النبي -صلى الله عليه وسلم- خطاً مستقيماً وخط خطوطاً صغاراً فقال: ((هذا صراط الله، وهذه السبل))[١٠]، وقرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}[سورة الأنعام:١٥٣]، وهو الصراط الذي نطلبه من الله -عز وجل- في: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ}[سورة الفاتحة:٦-٧]، وهذا المعنى هو الذي اعتمده الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وهو الذي اختاره ورجحه صاحب الأضواء، ويحتمل أن يكون {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ} سبيل القصد والاستقامة: يعني بيانها وإيضاح معالمها للناس، فالله -عز وجل- بيّنها وجلاها ووضحها، والمعنيان مذكوران في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} [سورة الليل:١٢]، وهذا المعنى: أن على الله البيان وهو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-.

{وَمِنْهَا جَآئِرٌ} أي: حائد مائل زائغ عن الحق، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {وَمِنْكم جَآئِرٌ}.

---

١٠ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (٤١٤٢)، وقال محققوه: إسناده حسن، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم (٦٢٩٧)، وحسنه الألباني في تحقيقه على مشكاة المصابيح برقم (١٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {وَمِنْهَا جَآئِرٌ}، ذكر الحافظ أن الضمير يرجع إلى الطريق، أي السبيل {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ} يعني: من السبل ما هو منحرف وجائر، خارج عن طريق القصد وعن الصراط المستقيم، هذا هو المعنى المشهور المتبادر، وهو الذي عليه عامة أهل العلم، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، {وَمِنْهَا جَآئِرٌ} من السبل ما هو منحرف لا يوصل إلى الله -تبارك وتعالى-، {وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ} [سورة الأنعام:١٥٣]، وقال الحافظ -رحمه الله-: "**وقرأ ابن مسعود** {وَمِنْكم جَآئِرٌ}" وهي قراءة منقولة عن علي -رضي الله عنه-، وليست بمتواترة، {وَمِنْهَا جَآئِرٌ} قال: {وَمِنْكم جَآئِرٌ}، هذا موافق للقول بأن السبيل عُبر بها عن سالكيها، {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ} أي: ومن سالكيها جائر، من هو الجائر؟ هوالحائد عن طريق القصد والاستقامة، فيكون هذا موافقاً له، {وَمِنْكم جَآئِرٌ} أي: حائد عن الحق، معرض عنه.

ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: {وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}، كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً} [سورة يونس:٩٩]، وقال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سورة هود:١١٨-١١٩].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل:١٠-١١].

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء -وهو العلو- مما لهم فيه بُلْغَة، ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: {لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ} أي: جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً، {وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} أي: وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله: {فِيهِ تُسِيمُونَ} أي: ترعون، ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي.

وقوله: {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} أي: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} أي: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [سورة النحل:٦٠].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}**، هذه الآية اشتملت على ثلاثة من براهين البعث المعروفة التي تتكرر في القرآن، وهي خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان من النطفة، وإحياء الأرض بعد موتها، وذكر في هذه الآية إنزال المطر من السماء، وما يحصل به من الإنبات، ثم ذكر بعدها آيات أورد فيها تلك البراهين، وقد ورد من براهين البعث وقدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى في سورة البقرة خمسة، وقوله تبارك تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ}** إلى آخره، كقوله -عز وجل-: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}**[سورة السجدة:٢٧]، وكقوله: **{وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}** [سورة النبأ:١٤-١٦]، وكقوله: **{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ}**[سورة ق:٩-١٠]، إلى غير ذلك من الآيات.

يقول: **{لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ}**، فسر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فقال: **{تُسِيمُونَ}** "**أي: وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم**"، فسر ذلك بالرعي، قال: "**ومنه الإبل السائمة**"، والسوم: الرعي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصل السوم: بعض أهل اللغة يقول: إنه الإبعاد في المرعى، وبعضهم يقول: السوم من السِّمة وهي العلامة، وذلك أن هذه البهائم والدواب السارحة تترك أثراً في الأرض، فقيل لها: سائمة بهذا الاعتبار، هكذا قال أهل اللغة، والأول أشهر، والعلم عند الله -تبارك وتعالى-.

العلماء يتكلمون على سبب تقديم الزرع على بقية الأشياء في قوله: {يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ} ويقولون: إنه أصل الغذاء بالنسبة للإنسان وما بعده كالزيتون هو فاكهة.

ثم قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [سورة النحل:١٢-١٣].

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السماوات نوراً وضياء ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله، كقوله: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [سورة الأعراف:٥٤]؛ **ولهذا قال:** {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} **أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه.**

وقوله: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مختلفاً ألوانه} **لما نبه تعالى على معالم السماوات نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص** {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} **أي: آلاء الله ونعمه فيشكرونها.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} ثم قال: {وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} على هذه القراءة التي هي قراءة حفص عن عاصم {وَالنُّجُومُ} يكون ذلك للاستئناف، وقرأ من السبعة ابن عامر قوله -تبارك وتعالى-: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ}: {وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ} بالرفع، وقراءة الجمهور بالنصب على أن ذلك من المفعول للفعل قبله وهو {سَخَّرَ}، وهذه الآية {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} من آيات الله -تبارك وتعالى-، كقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا} [سورة فاطر:٢٧]، وقوله: {وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ} [سورة الروم:٢٢]، كل هذا من آيات الله -عز وجل-، وقد مضى أيضاً نظائره.

{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة النحل:١٤-١٨].

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والإحرام، وما يخلقه فيه من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح، وكلاهما صحيح، وقيل: تمخره بجؤجئها وهو صدرها المسنَّم الذي أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح -عليه السلام-، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى هنا، وما هنا إلى هناك؛ ولهذا قال تعالى: {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: نعمه وإحسانه.

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال: {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} [سورة النازعات:٣٢].

وقوله: {وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً} أي: جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سُخر لأهله وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقويّ السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسّر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها سبلاً أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً} [سورة الأنبياء:٣١]الآية.

وقوله: {وَعَلامَاتٍ} أي: دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك، يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق.

وقوله: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} أي: في ظلام الليل، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الّذِي سَخّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ}، فقوله: {لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}، هذا لا يخفى أنه في سياق الامتنان، ولا يفهم من هذا بحال من الأحوال أن ما يستخرج مما يؤكل من البحر لا يؤكل قديداً مثلاً أو مجففاً، وإنما ذكر على سبيل الامتنان والله أعلم، ذَكَرَ اللحم الطري، فهو يؤكل وهو طري ويؤكل أيضاً من غير طراوة.

وقوله: {وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ}، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "**تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح**"، والمخر في كلام العرب يفسره بعضهم بصوت هبوب الريح، إذا اشتد هبوبها يقال له: مخر، وفسر بصوت السفينة عند هبوب الرياح تسيرها، وبعضهم يفسره كما ذكر أيضاً الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنها حينما تشق الماء بجؤجئها، وهو الخشبة المنقورة التي في مقدمتها -كما هو معلوم- فهي تشق الماء فيكون له صوت، يقول: "**ولا منافاة بين المعنيين**" وهذا صحيح، فهذه أمور متلازمة، كل ذلك له صوت يقال له: المخر، {وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ}، ثم قال: {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ} يحتمل أن تكون الواو عاطفة على ما ذكر قبله، وهو قوله: {وَهُوَ الّذِي سَخّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ}، فيكون المعنى هكذا: {وَهُوَ الّذِي سَخّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً}، {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ}،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعضهم يقول: إنه معطوف على مقدر، ويكون ما ذكر بعد الحلية من قبيل الاعتراض للتوضيح والبيان، {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً} استطرد في وصفها فقال: {تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ} هذا كله اعتراض على التفسير السابق، وبعضهم يقول: إن الواو في {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} عاطفة على علة محذوفة، هذه العلة المحذوفة يمكن أن تقدر بـــ "لتنتفعوا"، ولتبتغوا، {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا} إلى آخره {وَلِتَبْتَغُواْ}، وربْطُ ذلك بمقدرٍ: الأصلُ خلافُه، وإن كان يحتمل هذا، يعني: لتنتفعوا بذلك {وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ}، أو أنه يقال: فعل ذلك لتبتغوا من فضله، ولعل الأحسن -والله أعلم- أنه معطوف على قوله: {وَلِتَبْتَغُواْ} فيكون المعنى هكذا {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ} يعني: سخر البحر لتأكلوا وتستخرجوا وأيضاً لتبتغوا من فضله، بما يحصل من ألوان الابتغاء كركوب البحر للتجارة ونحو ذلك.

وهنا في قوله تعالى: {وَعَلامَاتٍ} قال الحافظ رحمه الله: "**أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً**".

تفسير قوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} اقتصر على العلامات الأرضية من الجبال التي يعرف المسافرون فيها طريقهم، فهي علامة، والآكام وما جعله الله -عز وجل- في هذه الأرض بحيث يميز الناس فيها المسالك والأماكن بهذه العلامات، مع أن الله -عز وجل- أطلق في العلامات، فقال: {وَعَلامَاتٍ}، فبعضهم قال: هذا مرتبط بما قبله، وهو قوله: {وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، ثم قال: {وَعَلامَاتٍ}، ثم ذكر العلامات السماوية العلوية وهي قوله: {وَبِالنَّجْمِ}، فدل على أن الأول هي العلامات الأرضية، فقال: "**أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون**"، ومن أهل العلم كابن جرير من حمل العلامات على ما هو أعم من هذا مما يُستدل به من أدلة النهار عموماً، {وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، ففي الليل يهتدون بالنجم، والنجم يمكن أن يحمل على النجوم عموماً، وحمله بعضهم على نوع من النجوم يهتدى بها، والنجوم لا شك أنه يهتدى بها، ولا يختص ذلك ببعضها، فالعرب كانت تصف الأماكن وصفاً دقيقاً بالنجوم، إذا أراد أن يصف لك محلاً أو منزلاً لبعض العرب أو نحو ذلك قال: هو تحت النجم الفلاني، فإذا تبعته وجدته كما وصف بدقة، ولا زال هذا لدى بعض الناس إلى يومنا هذا، هذه العلامات هي التي ذكرها الله -عز وجل- بعد العلامات الأرضية فقال: {وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، فابن جرير رحمه الله حملها على علامات النهار، وعلامات النهار لا تختص بالآكام والجبال، فهي نوع منها، وهناك علامات أخرى، ففي النهار مثلاً يعرف الشمال باتجاه التراب، فالتراب يكون مموجاً فتنظر إلى طرفه الممتد فهذا هو الجنوب، ووجهه الذي يستقبل يكون هو الشمال، والكثيب يكون وجهه محفوراً حفراً طبيعياً، فالمرتفع هو الشمال؛ لأن الرياح غالباً ما تأتي من جهة الشمال فتواجهها الجبال ولذا نجدها محفورة، وهذا ما يسمى بعلامات التعرية.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}[سورة النحل:١٧] الآية.

ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً، بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ}، ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[سورة النحل:١٨] أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير، وقال ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

{وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ}[سورة النحل:١٩-٢١].

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل -عليه السلام-: {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [سورة الصافات:٩٥-٩٦]، وقوله: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} أي: هي جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} أي: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا}، الإحصاء ورد أيضاً في قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أحصاها دخل الجنة))[1] أي أسماء الله الحسنى التسعة والتسعون، ومن معاني الإحصاء: الجمع، والإطاقة، وقوله: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا} أي: لا تستطيعون عدها وحصرها، ولا تطيقون القيام بحقها وشكرها، فهذا كله داخل في قوله -تبارك وتعالى-: {لا تُحْصُوهَا}، وقوله -تبارك وتعالى-:

---

١ - رواه البخاري، كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثُّنْيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس بينهم وإذا قال مائة إلا واحدة أو ثنتين، برقم (٢٥٨٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، برقم (٢٦٧٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ} عن المعبودات التي يعبدونها من دون الله -عز وجل-، معلوم أن الأموات غير أحياء، ولكن الله -عز وجل- ذكر ذلك في حقها {غَيْرُ أَحْيَاءٍ} أي: أنه لم يكن فيها حياة ففقدتها، فهي غير قابلة للحياة أصلاً، بخلاف الميت كان حياً ثم مات، ومن الأشياء ما لا يكون فيه القابلية أصلاً للحياة، وهو الذي يعبر عنه أهل الكلام والمنطق، وموجود في كتب ردود شيخ الإسلام -كالتدمرية في الرد على المناطقة- ما يسمى بالعدم والملكة، فلو قيل: هذه السارية لا تموت، وقيل: زيد لا يموت، فرق بين هذا وهذا، فالسارية حينما تنفى عنها الحياة هي غير قابلة للحياة أصلاً، لكن حينما تُنفى عن زيد الحياة فهذا نفي وصف يقبله، وقوله: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ}، هذه أحجار وأخشاب وأشجار وما إلى ذلك، هي غير قابلة للحياة أصلاً، لم تكن فيها الحياة ثم فارقتها، فقال: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ}، فقوله: {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ} يحتمل معنيين: الأول: ما تشعر هذه المعبودات أيان يبعث من عبدها، هذا معنى، والمعنى الثاني: وما تشعر هذه المعبودات متى تبعث هي باعتبار أن الله -عز وجل- قال: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}[سورة الأنبياء:٩٨]، وقال عن النار: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[سورة البقرة:٢٤]، وفسرت الحجارة بأحجار الكبريت، وفسرت بالأصنام، ولا منافاة بين القولين، فهذه كلها تُلقى، النار يلقى فيها العابد والمعبود، إلا أن الله -عز وجل- قال: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}[سورة الأنبياء:١٠١]، فالشاهد أن الآية تحتمل المعنيين، {وَمَا يَشْعُرُونَ} وما تشعر هذه المعبودات بوقت بعث من يعبدها، والمعنى الثاني: وما تشعر بوقت بعثها هي، والمعنى الأول أقرب، فقوله: {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ} يعني متى يبعث هؤلاء الذين يعبدونها ويتقربون إليها فهي لا عقل لها ولا فهم ولا إدراك، فليست بأهل للعبادة، ولو حملت الآية على المعنيين لم يكن ذلك بعيداً، فالقرآن يعبر بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وإن كان المعنى الأول أقرب؛ لأنه قد يفهم من البعث: الإحياء، وهذه لا حياة فيها أصلاً، وإنما تؤخذ وتلقى في النار فحسب، وربما يشكل على القارئ أو السامع قول الله: {وَمَا يَشْعُرُونَ} فيظن أن الكلام يرجع إلى المشركين، {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ} أي: ما يشعر هؤلاء الكفار متى يبعثون، باعتبار أن العبارة جاءت هكذا {وَمَا يَشْعُرُونَ}، ومثل هذه الصيغ في الجموع إنما تأتي للعقلاء، يشعرون، يبعثون، وغير العقلاء يقال: وما تشعر أيان تبعث، كما أنه تستعمل لفظة "من" للعاقل، و"ما" لغير العاقل، ولكن يأتي هذا الاستعمال -فيما كان للعقلاء- لغير العقلاء إذا نزل غير العاقل منزلة العاقل، فهذه المعبودات جمادات غير عاقلة، لكن هؤلاء الكفار لم يجعلوها مجرد عاقلة بل جعلوها آلهة، وعبدوها من دون الله -عز وجل-، فأجري عليها ما يجرى على العقلاء من العبارات، كما قال يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [سورة يوسف:٤] والأصل أن يقال: ساجدة؛ لأنها غير عاقلة، وإنما يقال: {سَاجِدِينَ} للعقلاء، لكن لما أضاف إليها شيئاً من أفعال العقلاء وهو السجود أجرى عليها ما يجري عليهم من العبارات، وهذا كثير، والخطاب يكون تارة بحسب اعتقاد المتكلم، وتارة بحسب اعتقاد المخاطب، وتارة لمعنىً آخر، وهنا بحسب ما يعتقد فيها عبادها، فعاملها هذه المعاملة {وَمَا يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ}.

{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخرة قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}[سورة النحل:٢٢-٢٣].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} [سورة ص:٥]، **وقال تعالى:** {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة الزمر:٤٥] **وقوله:** {وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} **أي: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال:** {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}[سورة غافر:٦٠]؛ **ولهذا قال ههنا:** {لا جَرَمَ} **أي: حقاً،** {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} **أي: وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء** {إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}.

قوله: {لا جَرَمَ}، تفسر بمعنى حقاً، وهذا أحسن وأوضح ما فسرت به، والعلم عند الله -عز وجل-.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ} [سورة النحل:٢٤-٢٥].

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين: {مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ} **معرضين عن الجواب:** {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} **أي: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى:** {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[سورة الفرقان:٥] **أي: يفترون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى:** {انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}[سورة الفرقان:٩]، **وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما** {فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} [سورة المدثر:١٨-٢٤] **أي: ينقل ويحكى، فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله.**

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، الأساطير: جمع أسطورة أو إسطارة، وأصل ذلك من السطر وهو الكتابة، فـ{أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} أي: أن ذلك مما سطر وكتب في كتب الأولين، ويوجد في كتب التفسير بعض من فسر ذلك -لا سيما الأقوال المنقولة عن السلف -رضي الله عنهم- بأنه الترّهات والأباطيل، وهذا لا يخالف قول من قال: إن أساطير الأولين أي ما سطر في كتب الأولين، فالذين قالوا: {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}، فهم يقصدون أن ذلك من الأباطيل التي في كتب الأولين التي لا خطام لها ولا زمام، إنما هي حكايات وأقوال ووقائع لا يعرف هل هي حق أو باطل، بل فيها من الأباطيل أشياء كثيرة، لا يعتمد عليها ولا يوثق بها، فقوله: {قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، بمعنى الأكاذيب والأباطيل، ومن فسره بأنه مما كتب وسطر من كتب الأولين فهو نفس المعنى، يعني هم قصدوا الوصول إلى هذا المعنى، ثم في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} يلاحظ الجواب هنا، وفي جواب أهل الإيمان حين وجه إليهم هذا السؤال {مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا} [سورة النحل:٣٠]، فـ{أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} جاءت مرفوعة، و{خَيْرًا} جاءت منصوبة، فهنا هؤلاء الكفار أصلاً لا يقولون: إنها منزلة؛ ولذلك قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيها: " **أي لم ينزل شيئاً إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين**"، فهم لا يؤمنون أنه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منزل أصلاً، ولهذا قالوا: {أَسَاطِيرُ الأَوّلِينَ}، يعني كأنهم يقولون: هذه أساطير الأولين لم تنزّل، بينما أهل الإيمان يعتقدون أنه منزّل، {قَالُواْ خَيْرًا} أي: أنزل خيراً، هذا الفرق بين الجوابين.

قال تعالى: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي: إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ} أي: "**إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم**"، فتكون اللام على هذا التفسير للعاقبة، وهم لا يقولون هذا من أجل أن يحملوا أوزارهم، لكن قدر عليهم ذلك ليحملوا أوزارهم في عاقبة الأمر، كما قال الله -عز وجل-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص:٨]، ومعلوم أنهم ما التقطوه من أجل أن يكون لهم عدواً وحزناً، بل التقطوه من أجل أن يسعدوا به، وينتفعوا به، ولكنه في العاقبة كان عدواً لهم وحزناً، ويحتمل أن تكون اللام لام الأمر أي ليحملوا أوزارهم، والأول أقرب، -والله تعالى أعلم-.

كما جاء في الحديث: ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً))[٢]**، وقال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}[سورة العنكبوت:١٣] وهكذا روى العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الآية: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أنها كقوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ}، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئاً.**

هذا لا ينافي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}[سورة فاطر:١٨]، فلا أحد يحمل وزر غيره وإنما كل أحد يحمل أوزاره، ولكن هؤلاء يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم باعتبار أن تلك الأوزار التي عملوها هي أيضاً من عملهم؛ لأنهم هم الذين دعوا إليها وأوقعوا هؤلاء فيها، فأولئك يعذبون عليها، وهؤلاء أيضاً يعذبون عليها، ومَن سنّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، وكما قال الله -عز وجل-: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ} [سورة الأعراف:٣٨] باعتبار أنه لا يخلو من إضلال، يضل ولده ومَن تحت يده، فالشاهد أن قوله: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، "مِن" هذه تحتمل أن تكون تبعيضية، فهم لا يحملون كل أوزار الذين يضلونهم بغير علم؛ لأن بعض أعمال أولئك ليست من إضلال هؤلاء، أعمال أولئك كثيرة متنوعة، وإنما يحملون من تلك الأوزار ما كانوا متسببين بوقوعهم فيها، يحملون هذا النوع من الأوزار، ويحتمل أن تكون هذه بيانية، {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، وقوله: {بِغَيْرِ عِلْمٍ} حال، يمكن أن تكون من الفاعل {يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي: أنهم يقومون بالإضلال بغير علم، فهم يحملون الأوزار، وأوزاراً مع الأوزار؛ لأنهم يقومون بإضلال الناس بغير علم منهم، أي من هؤلاء المضلِّين، المعنى الثاني: أن تكون حالاً من المفعول، {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ

---

٢ - رواه مسلم، كتاب العلم، باب مَن سنّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، برقم (٢٦٧٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، فهم يضللون أقواماً جهلة لا يعرفون التوحيد والإيمان والوحي فيضللونهم بهذه الأباطيل والشرك بالله -عز وجل-، فيكون {بِغَيْرِ عِلْمٍ} عائداً إلى من يقع عليهم الضلال، والآية تحتمل المعنيين، ويؤخذ منها أن كون الكافر أو الضال -سواء كان الذي يُضِل أو الذي يقع عليه الإضلال- يفعل ذلك بغير علم أن ذلك لا يكون بمجرده عذراً يعذر فيه، يكفي أنه تبلغه الدعوة ويفهم منها ما يفهم أو ما يصلح لمثله في الفهم، يكفي هذا القدر، أما كونه يقتنع فهذا ليس شرطاً في قيام الحجة عليه، ولهذا تجد الله -عز وجل- يقول: {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا} [سورة فاطر:٨] فهو يرى هذا العمل السيئ من الكفر وعبادة غير الله -عز وجل- يراه حسناً، يرى أنه على الحق، وأن غيره على الباطل، ويدعو إلى هذا، ويموت دونه، ويبذل الأموال في سبيله، فهذا ليس له عذر إذا بلغته الدعوة، وفَهم من الخطاب ما يصلح لمثله، ولذلك تجد من الناس من يقول: هؤلاء الكفار من اليهود والنصارى تربوا على هذا ونشئوا عليه وهم يعتقدون أنهم على حق، وأنهم على دين صحيح، وأن ما عداهم، على باطل، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ما من يهودي ولا نصراني يسمع بي من هذه الأمة ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[٣]، ويقول الله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}[سورة يوسف:١٠٣]، وهم يجادلون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، ويستنكفون عن الحق، ويقولون: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} [سورة ص:٥] فليس من شرط قيام الحجة الاقتناع، إطلاقاً، وإنما يكفي بلوغ الحجة، وأن يفهم منها ما يصلح لمثله في الفهم فقط، فتقوم عليه الحجة، وكونه يملأ رأسه من الأباطيل وينشأ على هذا ويربى عليه صباح مساء، هذا مما يزيد في ضلاله ووزره وهلكته، وهذه القضية ينبغي أن يُتفطن لها، فلا يصح أن يُعتذر عن الكفار أو عن بعض الكفار بأنهم هكذا كانوا، فيقال لهم هذه الآيات والنصوص القرآنية: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}.

---

٣ - رواه الحاكم في المستدرك (٣٧٢/٢)، برقم (٣٣٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والنسائي في السنن الكبرى (٣٦٣/٦)، برقم (١١٢٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة بمجموع طرقه برقم (٣٠٩٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ}[سورة النحل:٢٦-٢٧].

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} قال: هو النمرود الذي بنى الصرح، وقال آخرون: بل هو بُخْتُنَصَّر، والصحيح: أن هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح -عليه السلام-: {ومَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً}: أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة: {بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا}[سورة سبأ:٣٣] الآية.

وقوله: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ} أي: اجتثه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: {كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ}[سورة المائدة:٦٤]، وقوله: {فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[سورة الحشر:٢]، وقال الله ههنا: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ} أي: يظهر فضائحهم، وما كانت تكنّه ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[سورة الطارق:٩] أي: تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان))[1]، وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ويقول لهم الرب -تبارك وتعالى- مقرعاً لهم وموبخاً: {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ} تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ {هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ}[سورة الشعراء:٩٣]، {فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ} [سورة الطارق:١٠] فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار {قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} وهم السادة في الدنيا

---

١ - رواه البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنهما- بلفظ: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان))، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، برقم (٥٨٢٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، برقم (٤٦٢٩)، ورواه أيضاً مسلم عن أبي سعيد -رضي الله عنه- بلفظ: ((لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة))، كتاب الأدب، باب تحريم الغدر، برقم (١٧٣٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حينئذ: {إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} أي: الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ}، ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قولين في الآية، القول الأول مرجعه إلى أن ثمة من بنى بناءً فاقتلعه الله -عز وجل-، بناءً حسياً سواء قيل: إنه النمرود، أو قيل: إنه بختنصر، أو قيل غير ذلك مما جاء في كتب التفسير، وهؤلاء كأنهم أخذوا من ظاهر اللفظ {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ}، ذكر البنيان، وذكر القواعد وذكر السقف، فهذه مجتمعة قد يفهم منها أن البنيان كان له وجود حسي، والقول الآخر: أن هذا تقريب وتمثيل لمعنىً من المعاني فإن الله -عز وجل- يذكر الأمور المعنوية بصورة الحسية من أجل تقريبها للأذهان، فالذي اختاره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أنه لم يكن هناك بناء حسي، وليس المقصود أن أحداً من الناس بنى بناء ثم سقط عليه هذا البناء، وإنما يقال ذلك فيمن شيد شبهة أو مكر مكراً، أو خطط لأمر، ورتب له وهيأ له أسبابه، فأبطل الله -عز وجل- عليه كيده، ورد مكره عليه، وصار ذلك وبالاً ونقمة عليه وعلى أصحابه، هذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير.

وقوله: {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ} اقتلع الله -عز وجل- مكرهم وكيدهم وصار ذلك عائداً إليهم، هذا معنى، والآية تحتمل هذا، وتفسير ذلك ببناء حسي لا يبعد، لكن تحديد هذا ببختنصر أو بغيره هذا كله لا دليل عليه، ويمكن أن يقال كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: إن الله اجتث باطلهم من أصله، وفسادهم وإفسادهم وكيدهم، وما أرادوا بأنبيائهم -عليهم الصلاة والسلام- فلم يُبق منه شيئاً، وعاد وبال ذلك عليهم، {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ}، ومثل هذا الاستعمال عادة يكون في الأمور الحسية، وهذا الذي جعل أكثر العلماء يقولون بتفسيره ببناء حسي، لكن اختلفوا من الذي بناه، والقواعد: هي الأسس، وخر عليهم السقف من فوقهم: معلوم أن السقف لا يكون إلا فوق الإنسان، فقال الله -عز وجل-: {فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ}؛ ليدلل على أنهم كانوا تحته حينما سقط، سواء قلنا: إنه بناء حسي وُجد، أو قلنا: إن ذلك في تصوير المعنى، أي أن ذلك وقع وباله عليهم، وعاد شؤم مكرهم على أنفسهم، والعرب تقول: سقط لنا جدار، وخر لنا سقف، ويقصدون أنه سقط دون أن يكونوا تحته، إذا كانوا يملكون ذلك، يقولون: تعطلت لنا آلة، وسقط لنا جدار، وانهدمت لنا دار، وخر عندنا سقف، أو خر لنا سقف، فإذا أرادوا أن يمثلوا، أو أرادوا أن يقرروا أنهم كانوا تحته حينما سقط يقولون: خر فوقنا السقف، خر علينا من فوقنا، لكن حينما يقولون: خر علينا سقف، أو خر لنا سقف، انهدم علينا جدار، أو انهدم لنا جدار، أو نحو ذلك، فقد يقصدون أنه حصل ذلك في أملاكهم، وقوله: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ} أي: بالفضيحة، وقوله: {أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ}، هذه قراءة الجمهور وهي كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**تحاربون وتعادون في سبيلهم**"، إلى آخره، من المشاقة، ومثل هذه اللفظة من أهل العلم من يقول: إن أصل ذلك أن هذا يكون في شق، وهذا يكون في شق، كالعداوة يكون هذا في أحد عُدْوتي الوادي والآخر في العُدوة الأخرى،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا المحادة يكون هذا في حد ويكون هذا في حد، هكذا يقولون في أصل هذه اللفظة في الاشتقاق، وقراءة نافع بكسر النون {تُشَاقُّونِ فِيهِمْ} أي: تخاصمونني وتجادلونني في هؤلاء، وأنهم شركاء، أين هم؟ والقراءة الأولى -وهي قراءة الجمهور- أعم في المعنى من القراءة الثانية، {تُشَاقُّونَ}، ولم يذكر معموله، فهم يشاقون الله -عز وجل-، يشاقون الأنبياء وأتباع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وقراءة نافع {تُشَاقُّونِ فِيهِمْ} أي يشاقون الله -تبارك وتعالى-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم}، المكر: هو الكيد الخفي، وهو ما يفعله الإنسان ليتوصل به إلى مطالبه السيئة، ومقاصده الذميمة، من إيذاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ومن إشادة الباطل، ومن دفع الحق وقهر أهله، وما شابه ذلك، هذا كله يقال له: مكر، وهذا هو المتبادر من هذه اللفظة في كلام العرب، ومعناها أوسع من هذا، فكل ما يرتب بخفاء من أجل إبطال عمل أو تحقيق أمر أو نحو ذلك يمكن أن يدخل في هذا المعنى، لكن المتبادر منه حينما يذكر هكذا وحده فيقال: مكر، وفلان ماكر، وفلان يمكر: هو هذا المعنى السيئ الذي ذكرته آنفاً، ولهذا ما يضاف إلى الله -تبارك وتعالى- إلا في المواضع التي ذكر فيها حيث يكون كمالاً.

وقوله: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ} مثل قوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا} [سورة النمل:٥٠]، ففعل الله -عز وجل- فيهم هو من مكرهم، ومن مكره بهم {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[سورة الأنفال:٣٠]، لكنه هنا لم يصرح بمكره بهم وإنما ذكر فعلاً يرجع إلى ذلك، فهنا ذكر مكرهم وفي بعض المواضع يذكر مكر الله، يصرح بمكر الله وبمكرهم، وفي بعض المواضع يذكر مكر الله أو كيد الله بالكافرين فقط، ولهذا من أهل العلم من يقول: إن كيد الله -عز وجل- لا يذكر، أو إن مكره لا يذكر إلا في مقابل مكر الكافرين دائماً، يقال: إن ذلك لا يحسن إلا حيث يكون واقعاً بمن يستحقه، هذا هو الكمال، لكن لا يلزم أن يذكر معه مكر هؤلاء، ولهذا حتى بعض المنتسبين للسنة يسميه مشاكلة، يقول: لا حقيقة له وإنما هو مشاكلة، قابَلَ مكرهم بمكره، فهو من باب الاستعمال اللفظي مثل:

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه *** قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

الجبة لا تطبخ ، وكذلك القميص، لكن شاكل لفظهم فقط، استعمل اللفظة التي استعملوها، وهذا غير صحيح؛ لأن المشاكلة نوع من المجاز، فهذا تأويل للصفة، وإنما يقال: من يستحق المكر فإن الله يمكر به ويكون ذلك محموداً، ويدل على هذا أن الله -تبارك وتعالى- يفرده أحياناً {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}[سورة الأعراف:١٨٣]، {إِنَّ كَيْدِي} فذكر كيده ولم يذكر كيدهم، وما قابله بكيدهم، وهكذا إذا تأملت تجد أن ما يذكره بعض أهل العلم من أن ذلك لابد أن يذكر معه مكر هؤلاء أو كيد هؤلاء ليس على إطلاقه، {قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ}، فسره بالسادة في الدنيا والآخرة يقصد العلماء، وهذا هو الظاهر المتبادر، ومن أهل العلم من فسره بالملائكة، وقيل: الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وظاهر اللفظ: {قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ}، فالذين أوتوا العلم هم العلماء، وأئمتهم وكبراؤهم وسادتهم هم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لكن لا يقال الله ماكر، الله كائد، هكذا بإطلاق، لكن الله يكيد ويمكر بمن استحق ذلك، فالله يكيد الكافرين؛ لأنهم مستحقون، ولو أن أحداً من الناس سيئ وشديد الإفساد والعبث والأذية للناس، وقد بلغ أذاه الغاية، فجاء واحد من الناس وتلطف حتى أوقعه بمغبّة فعله، فمثل هذا يحمده الناس، حينما يوقع به فيقع في شراك إفساده وفساده، الناس يحمدون هذا ويرون أنه من قبيل الكمال.

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[سورة النحل:٢٨-٢٩].

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة، {فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ} أي: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ} كما يقولون يوم المعاد: {وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}، {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [سورة المجادلة:١٨] **قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك: {بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} أي: بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}** [سورة فاطر:٣٦]، **كما قال الله تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}** [سورة غافر:٤٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ} أحسن ما يفسر به -والله تعالى أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين**"، أي: الاستسلام، وهو أحد المعنيين اللذين فسر بهما قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا} [سورة النساء:٩٤]، فقيل: الاستسلام، ألقى السلام أي الاستسلام، وهنا قال: {فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ} يعني استسلموا وأذعنوا، ثم قالوا: {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ}، وهذا لا يعارض قول الله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} [سورة النساء:٤٢]، فإن القيامة، وأحوال القيامة، والآخرة -منذ أن تقبض روح الإنسان ويبقى في البرزخ ويأتيه الملكان، ثم يبعث، ثم بعد ذلك يكون في ذلك الموقف الطويل- أحوال متعددة، فهم في البداية يكابرون كما ذكر الله -عز وجل-، ونقل الحافظ ابن كثير بعض الشواهد كقوله: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام:٢٣]، {فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ} [سورة المجادلة:١٨]، فهم في البداية ينفون هذا، ثم بعد ذلك يختم الله -عزوجل- على الأفواه، قال: {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ} [سورة يـــس:٦٥]، فتتكلم الجوارح وتشهد الجلود، {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} [سورة فصلت:٢١]، فحينما يكون الإنسان بهذه الحال، وبهذه المثابة، وتشهد عليه جوارحه فإنه بعد ذلك لا يستطيع المكابرة والإنكار، فيقول لجوارحه: ((بعداً لكنّ وسحقاً فعنكنّ كنت أناضل))[٢] كما جاء في الحديث، ففي البداية ينكر ثم يقر ويعترف بعد أن تشهد جوارحه، {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ} [سورة النحل:٢٨] ثم قال الله -عز وجل-: {فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ**

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٩)، من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} المثوى: هو مكان الثواء، كما يقال: المجثم مكان الجثوم، والمبرك مكان البروك، معاطن الإبل: مبارك الإبل، وهكذا في مثل هذا الاستعمال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[سورة النحل:٣٠-٣٢].

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: {مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ} قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: {خيراً}، أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} الآية، كقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أي: من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أي: من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ} [سورة القصص:٨٠] **الآية، وقال تعالى: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ}** [سورة آل عمران:١٩٨]**، وقال تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [سورة الأعلى:١٧]**، وقال لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى}**[سورة الضحى:٤]**، ثم وصف الدار الآخرة فقال: {وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**، قوله: **{لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسوله فقال: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**"، ومقتضى ذلك أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن هذا الجزء من الآية من كلام الله -عز وجل-، وليس من كلام الذين اتقوا، وهذا كنظائره في القرآن، التي مر بعضها، كقول امرأة العزيز **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [سورة يوسف:٥٢] إلى غير هذا من الأمثلة، ويحتمل أن يكون من كلام الذين اتقوا **{قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}**، ويحتمل أن يكون من كلام الله -تبارك وتعالى-، انتهى كلامهم عند قوله: **{خيراً}** ثم حكم الله -عز وجل- بين الفريقين فقال: **{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}**، وهي كقوله -تبارك وتعالى-: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً}**[سورة النحل:٩٧]، ولا يفهم من المقصود بالحسنة والحياة الطيبة أنه يعيش في ترف ورغد من العيش ينعم به بدنه، ولو كان هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هو المقصود لكان أولى الناس به هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ} هذا هو الوصف، {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} هذا هو الحكم، حكم لهم بالحسنة، فعلى قدر إحسانهم على قدر ما يكون لهم من هذا الجزاء من هذه الحسنة التي ذكرها، فلو كان هذا يقصد به نعيم الأبدان لكان أعظم الناس في هذا الباب هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومعلوم أنه كان ينام على الحصير -عليه الصلاة والسلام- حتى يؤثر في جنبه، وكان يمر الهلال والهلال والهلال وما يوقَد في بيته نار، وحياته -صلى الله عليه وسلم- معروفة، وحياة أصحابة أيضاً كذلك، ما كانوا أهل ترف وتوسع في الملاذ، وهذه الحسنة التي وعد الله -عز وجل- بها يدخل فيها النصر على الأعداء، وما حصل لهم من الفتوح، كما قال الله -عز وجل-: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ} [سورة النحل:٤١] وعدهم بالمباءة الحسنة التي تكون بظهورهم على أعدائهم، وبتمكينهم في الأرض، ويحصل لهم من جراء ذلك من الولايات حتى صاروا أئمة يقتدى بهم، بعد أن كانوا لا يعبأ بهم، وليس لهم شأن، والعرب يقال لهم في الجاهلية: ذباب الصحراء، ثم بعد ذلك لما أحسنوا هذا الإحسان العظيم حصل لهم ما تعرفون، أضف إلى ذلك -وهو أعظم- أن هذا الإحسان ليس على مستوى الأمة فحسب وإنما على مستوى الواحد المعيّن، فلا يكون تمكين للأمة إذا كان الصلاح صلاح أفراد، فتكون الحسنة بالنسبة لهؤلاء ما يحصل لهم من لذة الإيمان وانشراح الصدر والنعيم القلبي، إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، والله -تبارك وتعالى- أخبر عما يحصل للمؤمن من الانشراح، مما يقع في قلبه فيعيش في حياة كريمة، حياة طيبة، ويعيش غيره في أسر ذنوبه، فيقع في قلبه من الوحشة والظلمة وإن كان بدنه منعماً، فالنعيم هو نعيم القلب، والسرور، والراحة واللذة هي لذة القلب، ولو أتيت بمن أسر قلبه وأظلم ووضعته في أعظم الملاذ في الدنيا فإن كآبته لا تزول إلا إن كانت كآبته بسبب عارض من ضيق عيش أو نحو ذلك، وإلا فظلمة القلب ووحشته لا تزول، لا بالاجتماع بالناس ولا بتنعيم البدن، فوحشتهم وآلامهم وهمومهم والظلمة التي في قلوبهم تتنقل معهم، وتحل حيث حلوا، فيفهم هذا على هذا المعنى، ولا يقال: من الناس من يكون تقياً محسناً ومع ذلك يكون فقيراً، ليس هذا هو المراد بالحسنة، أضف إلى ذلك ما يكون لهم من الذكر الجميل، والله -عز وجل- إذا أحب عبداً، كما في الحديث: ((نادى جبريل إني إحب فلاناً))[1] إلى آخره، فيوضع له القبول في الأرض، وبقي الذكر الجميل لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إذا ذكروا ترضى الناس عنهم، وبقيت محبة الأمة لهم، وهكذا لمن جاء بعدهم إلى يوم القيامة، كل من كان متصفاً بالإحسان على قدر إحسانه.

وقوله: {جَنَّاتِ عَدْنٍ} بدل من دار المتقين أي لهم في الآخرة جنات عدن، أي مُقام يدخلونها.

---

١ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العدن هو الإقامة، عَدَنَ بالمكان أي أقام به، جنات إقامة.

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} أي: **بين أشجارها وقصورها** {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ}، **كقوله تعالى:** {وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [سورة الزخرف:٧١]، **وفي الحديث:** ((**إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليه حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك**))[٢].

وقوله -تبارك وتعالى-: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}، ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أنس -رضي الله عنه-: ((إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى عليها في الآخرة، وأما الكافر فطُعم بحسناته حتى إذا وافى يوم القيامة لم يكن له عند الله حسنة))[٣]، ومثل هذا الحديث يفسر المراد، والله -عز وجل- يعطي المؤمن في الدنيا ويعطيه في الآخرة.

{كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ} أي: **كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي مخلَّصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [سورة فصلت:٣٠-٣٢].

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ} [سورة النحل:٣٢] إنما يحصل هذا الاتصاف إذا كان الإنسان متحققاً بالإيمان والاستقامة على طاعة الله -تبارك وتعالى-، ولهذا قال الله: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا}، وتبشرهم بالجنة، وما قاله السلف في قوله: {تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ} قالوا: أي طاهرين من الشرك، وبعضهم قال: من الذنوب والمعاصي، وقيل بأن نفوسهم طيبة واثقة بوعد الله -عز وجل- لهم، يعني لأهل الإيمان، وما إلى ذلك من الأقوال، والشرك نجاسة مغلظة لا تطهرها مياه البحار، وهؤلاء أهل الإيمان {تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ} أي: زاكية أفعالهم وأقوالهم، وذلك بالإيمان وخلوصهم من الشرك.

وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[سورة إبراهيم:٢٧].

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[سورة النحل:٣٣-٣٤].

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم؟، قاله قتادة. {أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ} أي: **يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال.**

---

٢ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٦٤٢/٢١)، من طريق الحسن بن عرفة، قال: حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار، عن محمد بن سعد الأنصاري، عن أبي ظبية السلفي.

٣ - رواه مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا، برقم (٢٨٠٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أن الملائكة تأتي لقبض الأرواح، {أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ} يعني يوم القيامة، ومن السلف من يقول: المقصود به العذاب المستأصل الذي يحصل لهم في الدنيا، والقول الأول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لعله هو الأقرب، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-.

وقوله: {كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} أي: هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال، {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ}؛ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه، {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} أي: بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به؛ فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك، {وَحَاقَ بِهِمْ} أي: أحاط بهم من العذاب الأليم، {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله؛ فلهذا يقال لهم يوم القيامة: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} [سورة الطور:١٤].

فائدة:

معنى كون الله -تبارك وتعالى- يجزي عباده بأحسن ما كانوا يعملون:

من أهل العلم من قال: إن أحسن بمعنى حسن، وإن أفعل التفضيل المقصود به مطلق الاتصاف، وإنه قد يأتي مراداً به مطلق الاتصاف، هذا معروف في كلام العرب، ومنه قوله تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} [سورة الليل:١٧] يعني: التقي، ومنه قول الشاعر:

تمنى رجالٌ أن أموت وإنْ أمت *** فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأوحد

يعني بواحدٍ، فيكون {بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة النحل:٩٦] يعني: بالأعمال الحسنة، والمعنى الثاني: أن الله يتفضل عليهم فيعاملهم في العطاء والجزاء والثواب بمعيار الأحسن، يعني هم قدموا أعمالاً متفاوتة، منها ما كان في غاية الإحسان، وهي أعمال عظيمة بحسب متعلقها مما قام بقلوبهم من الإخبات عند العمل بها مع المتابعة مع عظيم الإخلاص، {يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [سورة المؤمنون:٦٠]، وما إلى ذلك، فهذا في الدرجة العليا في الإحسان، وهناك أعمال دون ذلك، فتكون المعاملة لهم بالأحسن والأفضل والأكمل، فيَرفع لهم النقص ويَجبره، وهذا من معاني اسمه الجبّار، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}[سورة النحل: (٣٥-٣٧)].

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: {لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}: أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم: أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه، قال الله تعالى رادًّا عليهم شبهتهم: {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ}: أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة أي: في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله، وينهون عن عبادة ما سواه: {أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح -عليه السلام- الذين أُرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[سورة الأنبياء: (٢٥)]، وقوله تعالى: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}[سورة الزخرف: (٤٥)]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}، فيكف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: {لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}؟، فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدراً، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: {فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}: أي: اسألوا عما كان مِنْ أمر مَنْ خالف الرسل، وكذب الحق كيف {دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}[سورة محمد: (١٠)]، فقال:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}[سورة الملك: (١٨)]، **ثم أخبر الله تعالى رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى:** {وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا}[سورة المائدة: (٤١)]، **وقال نوح -عليه السلام- لقومه:** {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ}[سورة هود: (٣٤)]، **وقال في هذه الآية الكريمة:** {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ} **كما قال الله تعالى:** {مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [سورة الأعراف: (١٨٦)] **وقال تعالى:** {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس: (٩٦-٩٧)]. **وقوله:** {فَإِنَّ اللّهَ}: **أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلهذا قال:** {لا يَهْدِي مَنْ يُضِلّ}: **أي من أضله، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد،** {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}: **أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه،** {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[سورة الأعراف: (٥٤)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}، هؤلاء كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يحتجون بالقدر على المعائب، ومعلوم أن القدر لا يجوز أن يحتج به على المعائب، وإنما يمكن أن يحتج به على المصائب، فالله -تبارك وتعالى- يهدي من يشاء، ويضل من يشاء بعلم وحكمة، وما قدره الله -تبارك وتعالى- وقضاه فهو كائن، وهو القائل: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}[سورة الليل: (٥-١٠)] والقائل: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ}[سورة التوبة: (١١٥)]، وهؤلاء احتجوا على المعائب بالقدر، وهو احتجاج باطل، ووجه احتجاجهم قولهم: {لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}: أي: أن الله قدر ذلك علينا، واحتجوا بهذا التقدير على أن الله -تبارك وتعالى- يرضى هذا ويحبه، فظنوا أن مشيئته العامة وقدره الكوني يقتضيان المحبة، كما هو قول بعض طوائف المبتدعة، ومعلوم أن مشيئته العامة وقدره الكوني لا يقتضيان المحبة، فالله -تبارك وتعالى- قدر وجود الكفر ومع ذلك فهو يقول: {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [سورة الزمر: (٧)]، وإنما يريد الإيمان والطاعة وفعل الخيرات واجتناب المعاصي، وهذه إرادة شرعية، وتجتمع هذه الإرادة مع الإرادة الكونية فيمن استجاب، وأناب، وآمن، وأطاع الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [سورة النحل: (٣٦)]، فسَّر الأمة هنا فقال: **بعث في كل أمة: أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً**، وهنا جمع بين معنيين، والأمة في أصلها تأتي للمدة الزمنية، وتأتي للجماعة من الناس، وتأتي لمعانٍ أُخَر، وهنا قال: {فِي كُلِّ أُمَّةٍ}: أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً {أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}، ثم هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ}، الطاغوت: يقال لكل ما عبد من دون الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-عز وجل- وهو راضٍ، وكل ما تجاوز حده أو تجاوز الناس به الحد وهو راضٍ إن كان ممن يعقل فهو طاغوت، فما عبد من الأشجار والأحجار والأصنام ومن البشر وما إلى ذلك كل هذا يقال له: طاغوت.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ} أي: من أضله فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟، {لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}: من أضله، فإنه لا أحد يهديه، هكذا فسرها الحافظ ابن كثير، فالمعنى: {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}: أي: من قدر عليه الضلالة فإنه لا يهديه، {لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}، وهذا هو ظاهر الآية، ورجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في تفسيرها، وتحتمل الآية معنىً آخر وهو أن الله {لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}: أي من يُضلُّ الناسَ، ولكن هذا فيه بعد؛ لأن المعنى أوسع من هذا، والآية فيها على كل حال قراءتان متواترتان، فهذه القراءة التي نقرأ بها {لاَ يَهْدِي} هي قراءة الكوفيين، وقرأ بقية القراء {لاَ يُهْدَى مَن يُضِلُّ}، وهذه القراءة في المعنى أكثر وضوحاً من الأولى، {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُهْدَى مَن يُضِلُّ}، من يضله الله -عز وجل- فلا أحد يهديه من الناس، وأما القراءة الأولى {لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ}: من سبقت له الشقاوة عند الله -تبارك وتعالى- فإن الله لا يهديه.

{وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة النحل: (٣٨-٤٠)].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت، أي: استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكذباً لهم ورادًّا عليهم: {بَلَىَ}: أي بلى سيكون ذلك، {وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً}: أي لا بد منه {وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}: أي: فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: {لِيُبَيّنَ لَهُمُ}: أي للناس، {الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}: أي من كل شيء {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}[سورة النجم: (٣١)].

في قوله هنا: {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}، الضمير في قوله: {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ} يرجع إلى من؟ يحتمل أن يكون عائداً إلى الموتى، {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا}: أي يبعثهم {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}: أي يبين لهؤلاء الذين ماتوا، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أعم في المعنى، أي {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ}: أي للناس المؤمن والكافر، فالله -عز وجل- يوم القيامة يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وهذا دل عليه القرآن في مواضع أخرى، ويحتمل أن يكون {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ} متعلقاً بقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً} أي: {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}، لكن ما قبله أقوى منه وأقرب في المعنى، ويحتمل أن يكون الضمير في {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ} يرجع إلى هؤلاء الذين يجادلون في قدرة الله -عز وجل- على إحياء الموتى، والبعث، {وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا}، {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ} هؤلاء الذين يشاقون ويجادلون في البعث، هذا معنى {لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ} من أمر البعث وإحياء الموتى بعد فنائهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ}: أي: في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت، ولهذا يُدَعُّون يوم القيامة إلى نار جهنم دعاً، وتقول لهم الزبانية: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}[سورة الطور: (١٤-١٦)]، ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كقوله: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}[سورة القمر: (٥٠)]، وقال: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[سورة لقمان: (٢٨)]، وقال في هذه الآية الكريمة: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}: أي: أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن، أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يُمانَع ولا يخالف؛ لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

{وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[سورة النحل: (٤١-٤٢)].

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخِلّان رجاء ثواب الله وجزائه، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مُهاجِرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة؛ ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأبو سلمة بن عبد الأسود، في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صدّيق وصدّيقة -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، وقد فعل، فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة، فقال: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والشعبي وقتادة: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حُكاماً، وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ}: أي: مما أعطيناهم في الدنيا، {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}: أي: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله، ثم وصفهم تعالى فقال: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}: أي: صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

هذه الآية يقال فيها كما قيل في الآية التي سبقت وهي قوله -تبارك وتعالى-: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}[سورة النحل: (٣٠)] فهنا قال: {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}: أي مباءة حسنة، أو تبوئة حسنة، والذين هاجروا هنا يمكن أن يحمل على أعم مما ذكر، يعني لا يختص هذا بالذين هاجروا إلى الحبشة، أو الذين هاجروا من مكة إلى المدينة مثلاً، وإنما ذلك وعد من الله -عز وجل- عام لكل من هاجر بدينه فراراً به؛ فإن الله وعده بهذا الوعد، {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ}، ولا يؤثر على هذا أن التعبير جاء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالفعل الماضي، {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ}، فكل من تحقق فيه هذا الوصف فهو موعود بذلك، وأولى من يدخلون فيه أولئك الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة أو إلى المدينة، فكل ذلك يشمله هذا العموم {وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} فهذا وعد لمن هاجر، ولهذا عبر بالفعل الماضي، ما قال: والذين يهاجرون، أو سيهاجرون، وإنما هذا تسلية ووعد لمن فقد الأهل والعشيرة والوطن في سبيل الله -تبارك وتعالى-، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، والمباءة سبق الكلام عليها، {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}، وهذه الحسنة التي تكون في الدنيا: من أهل العلم -كما سبق- من يقول: هي النصر على الأعداء، ومنهم من يقول: ما حصل من الفتوح، ومنهم من يقول: ما يقع لهم، أو ما وقع لهم من الذكر الجميل على مر العصور، وبعضهم يقول: الرزق الطيب ونحو ذلك، والآية هنا يقال فيها كما قيل في الآية السابقة {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}، فلا يفهم من هذا أن المقصود هو رغد العيش، والنعيم الذي يكون للأبدان، فإن من هؤلاء من قتل ولم يرَ هذه الفتوح، ولم يحصل له التوسع والتلذذ بالطيبات، ولكن ما يحصل لأهل الإيمان من السعادة واللذة والأنس والانشراح بمعرفة الله -عز وجل-، وقد يحصل معه لهم شيء من هذا الحطام العاجل في الدنيا كما حصل لكثير من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعلى كل حال في قوله هنا: {وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}، يحتمل أن يكون قوله {لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} راجعاً إلى المؤمنين، الذين وعدهم الله -عز وجل-، أو الذين تخلفوا عن الهجرة، فإن أجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، ويحتمل أن يكون عائداً إلى الذين ظلموهم وآذوهم وأخرجوهم، فالله يقول: {وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ}.

سؤال: من فسر الآية المتقدمة {فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ} [سورة النحل: (٢٦)] بأن الله أتى إليهم حقيقة، فما حكم ذلك؟

لا، ليس كذلك ولا يفهم هذا من ظاهره، قال: {فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ}، أتى بنيانهم من القواعد، بهذا القيد، فأتاه من القواعد ما معناه؟ معناه أنه دمره، وأبطله، وأزاله، هذا المقصود، لمّا تقول: فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، أتاهم يعني: جاءهم بنفسه من حيث لم يحتسبوا؟ لا، وإنما أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا بالعذاب، هذا هو ظاهر القرآن، وليس هذا من التأويل في شيء، فأتى بنيانهم: بمعنى أزاله.

فائدة: فيمَ يُهتدى بالنجوم؟

{وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة النحل: (١٦)] يُهتدى بها في الأسفار، ونظرُ إبراهيم -عليه السلام- في النجوم ليس فيه دلالة على غير ذلك، وإنما ذكر بعض أهل العلم أنه أراد أن يشاكلهم، أو أن يفعل شيئاً لأنهم يعبدون ويعظمون هذه النجوم والكواكب، {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ}[سورة الصافات: (٨٨-٨٩)] ليوهمهم بهذا المعنى من أجل أن يتوصل إلى تحطيم هذه الأصنام، ثم قال لهم بعد ذلك: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ} [سورة الأنبياء: (٦٣)]، وإلا فالنظر في النجوم هنا لا يدل على أنه عرف أنه سقيم، أو ليس بسقيم بمجرد النظر في النجوم، فإنها لا تُنبئ عن شيء من ذلك إطلاقاً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وأجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاّ رِجَالاً نّوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيّنَاتِ وَالزّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذّكْرَ لِتُبَيّنَ لِلنّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلّهُمْ يَتَفَكّرُونَ} [سورة النحل:٤٣-٤٤].

قال الضحاك: عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ}[سورة يونس:٢] الآية، وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} يعني: أهل الكتب الماضية: أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد -صلى الله عليه وسلم- رسولاً، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [سورة يوسف:١٠٩]، ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وكذا روي عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، وذلك كما قال تعالى: {قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً} [سورة الإسراء:٩٣-٩٤]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [سورة الفرقان:٢٠]، وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} [سورة الأنبياء:٨]، وقال: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ} [سورة الأحقاف:٩]، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [سورة الكهف:١١٠]، ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة؟، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم {بِالْبَيِّنَاتِ} أي: بالحجج والدلائل، {وَالزُّبُرِ} وهي الكتب، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك وغيرهم، والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرتُ الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} [سورة القمر:٥٢]، وقال: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[سورة الأنبياء:١٠٥]، ثم قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ} يعني: القرآن، {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} أي: من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصّل لهم ما أُجمل، وتبين لهم ما أشكل، {وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاّ رِجَالاً نّوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ}، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ} قال: "**يعني أهل الكتب الماضية**"، وهذا كقول من قال: فاسألوا أهل التوراة والإنجيل، وقول من قال: أهل الكتاب، أو اليهود والنصارى، أو نحو ذلك فإن هذا يرجع إلى شيء واحد، الكتب أعم من هذا ولكن المتاح حينما نزلت هذه الآية والذي يمكن أن يسأل هم علماء أهل الكتاب، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ}، اسألوا هؤلاء عن الرسل الماضين هل كانوا بشراً أو ملائكة؟، وهذه الآية ترد على ألسن العلماء وغير العلماء كثيراً ويستعملونها في معنىً أعم من هذا، فأهل الذكر يعني كل من ينسب إلى الذكر والعلم، فلا يخصون ذلك بأهل الكتاب، كما يقول الزجّاج في تفسيرها، وهذا الاستعمال في محله، وهو استعمال صحيح غير منكر، فالآية وإن كانت نازلة في معنىً معين، لكن معناها مأخوذ من لفظها الأعم، يمكن أن يحتج به أو أن يورد في الموارد التي تصلح لهذا العموم، أو تدخل تحته فيقال: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ} كل من ينسب إلى ذكر وعلم يُسأل، ليس في هذه القضية خاصة، وإنما فيما يصلح في كل مقام، فالناس إذا احتاجوا إلى معرفة ما أنزل الله على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والتبس عليهم أمر، وأرادوا أن يعرفوا حكماً يقال لهم: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ}؛ لأن الله -عز وجل- أرشد هؤلاء الذين نزلت الآية مخاطبة لهم {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ}، إلى سؤال أهل الذكر -أهل العلم بالكتب- ليعرفوا أن الرسل كانوا بشراً، وهكذا كل من أراد أن يتوصل إلى شيء فعليه أن يسأل أهله العارفين به، والمختصين بهذا اللون من ألوان المعرفة، وحتى في الصنائع والأمور الدنيوية، فإذا كانت قضية تتعلق بالطب مثلاً فإنه يَسأل الأطباء ولا يَسأل الفلاحين، وإذا كانت قضية تتعلق بالزراعة فإنه يسأل أهل الزراعة، وهكذا.

ومن أهل العلم من يقول بأن الذكر هو القرآن، والله -عز وجل- قال بعده: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ}، وقال: {وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ}[سورة الأنبياء:٥٠] {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ}: يعني أهل القرآن، وفي هذه الآية ليس هو المراد؛ لأن هؤلاء يجادلون في القرآن، ويجادلون في إرسال محمد -صلى الله عليه وسلم-، ويقولون: إنما يعلمه بشر، فكيف يحالون إلى سؤال أهل القرآن؟، وإنما كانوا يطمئنون إلى أهل الكتاب فكانوا يسألونهم؛ لمعرفتهم بما كان عليه الأنبياء قبلهم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ}، هذه اللفظة {بِالْبَيِّنَاتِ} من أهل العلم من يقول: إنها مرتبطة بما ذكر قبلها {لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيّنَاتِ وَالزّبُرِ}، أي إن كنتم غير عارفين بالبينات والزبر، ولا عهد لكم بها ولا معرفة فاسألوا أهل الذكر، ومن أهل العلم من يقول: إنها متعلقة بقوله: {أَرْسَلْنَا}، فالله -عز وجل- يقول: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ}، {وَمَا أَرْسَلْنَا} {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ}، والزبر: الكتب، والبينات: الحجج الواضحات، تقول: زبرت الكتاب أي كتبته، والمعنى: وما أرسلنا بالبينات والزبر، وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، ومنهم من يقول: فيه تقديم وتأخير، -والأصل في الكلام الترتيب، وإذا دار الكلام بين التقديم والتأخير والترتيب فالأصل فيه الترتيب-، فيقولون: وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا نوحي إليهم، وبعضهم يقول: متعلق بمحذوف، فيكون الكلام هكذا، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيّنَاتِ وَالزّبُرِ} أرسلناهم بالبينات والزبر، والأصل في الكلام الاستقلال، و"إذا دار الكلام بين الاستقلال والإضمار فالأصل الاستقلال"، ومهما أمكن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حمل الكلام على وجه صحيح من غير الحاجة إلى التقدير فهو المطلوب وهو الأصل، ومن أهل العلم من يقول: إنه متعلق بـــ {نُّوحِي}، ويكون الكلام هكذا {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ} بالبينات والزبر، وهذا أبعد من المعاني المذكورة قبله، وبعضهم يقول: متعلق بقوله: {رِجَالاً}، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً} يعني: متلبسين بالبينات والزبر، أرسلناهم بالبينات والزبر، لا بقوله: {أَرْسَلْنَا}، وإنما بـــ {رِجَالاً} أي: متلبسين بالبينات والزبر، وهذا فيه بعد، والله تعالى أعلم.

{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [سورة النحل:٤٥-٤٧].

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب {مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [سورة الملك:١٦-١٧]، وقوله: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ} أي: في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهية، قال قتادة والسدي: {تَقَلُّبِهِمْ} أي: أسفارهم، كقوله: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ}[سورة الأعراف:٩٧-٩٨].

وقوله: {فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ} أي: لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه، وقوله: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ} أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ}، يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك، وكذا روي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم، ثم قال تعالى: {فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} أي: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين: ((لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم))[1]، وفيهما: ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته))، ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [سورة هود:١٠٢][2]، وقال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} [سورة الحج:٤٨].

المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ}: "**أي في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهية**"، ونقل عن بعض السلف: "**أي تقلب هؤلاء في أسفارهم**"، هذا هو المعنى المتبادر، {أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ} أي: ذهابهم ومجيئهم وتنقلاتهم وأسفارهم، هذه المعاني التي يذكرها السلف داخلة فيه، ومن أهل العلم من فسره بمعنىً آخر فقال: {فِي

---

١ - رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، برقم (٥٧٤٨)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر على أذىً من الله -عز و جل-، برقم (٢٨٠٤)، من حديث أبي موسى -رضي الله عنه.

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}، برقم (٤٤٠٩)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَقَلُّبِهِمْ}: يعني على فرشهم، وذلك كقوله -تبارك وتعالى-: {وَهُمْ نَائِمُونَ}[سورة القلم:١٩]، وهذا فيه بعد، ولا يتبادر إلى الذهن، وإنما التقلب في الذهاب والمجيء، وطلب المعايش والسفر ونحو ذلك، هذا هو المتبادر، والقرآن إنما يحمل على الظاهر المتبادر، دون المعاني البعيدة.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: في قوله تعالى: {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوّفٍ}: "**أي أو يأخذهم الله في حال تخوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد**"، ومعنى ذلك كما قال الله -عز وجل-: {أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ}[سورة الأعراف:٩٧]، فإذا جاءهم بأس الله -عز وجل- بياتاً وهو نائمون، أو جاءهم ضحىً وهم يلعبون، فهم لاهون غافلون لا يتوقعون حصول هذا العذاب الذي ينزل بهم، فيقابله الأخذ على التخوف يعني أنهم حيث يتخوفون من الأخذ ونزول العقوبة، وله وجه، لكن غيره أولى منه -والله تعالى أعلم-، وذلك لأن تفسير الآية بالتنقّص عليه عامة المفسرين، بمعنى أن الله يأخذ هؤلاء على تخوف أي على تنقص، فلا يأخذهم أخذاً مستأصلاً بعذاب يستأصلهم ويقطع دابرهم، وإنما يأخذهم شيئاً فشيئاً، حتى يأتي على آخرهم، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه الموقف الذي صار لعمر -رضي الله عنه- حينما سأل عن التخوف فقام له رجل وقال: إنه التنقص، في لغتهم، وسأله عن شيء يشهد لهذا فذكر له البيت المعروف، يصف الناقة:

تخوف الرحل منها تامكاً قرِداً *** كما تخوف عود النبعة السَّفِن

يعني: الرحل اشتد على الناقة فأثر في سنامها، وتامكاً قرداً: يعني فيه القراد، وهي دويبة معروفة تعيش غالباً في الإبل، والغنم.

السفِن الذي يصنع السفينة، ينحت وينقر العود الذي في مقدمها، فالشاهد أن التخوف فُسر بمعنى التنقص الواحد ثم الواحد، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} يعني: العذاب المستأصل، ويقابله {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوّفٍ}، قد يقول قائل: إنه لا يتعارض مع القول الآخر المذكور قبله، وهو أن يأخذهم وهم في حال خوف وترقب، وذلك أنه إذا أخذ صاحبه تخوف الأخذ بعده، لكن من فسر بهذا التفسير المذكور لا يقصد هذا، وإنما يقصد {أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوّفٍ} أي: تنقص، أي أنه لا يستأصلهم إنما الواحد بعد الآخر، وقد يشكل على هذا المعنى بأن ذلك يقع لجميع الناس، فالناس يفنون بهذه الطريقة الواحد بعد الواحد، فهذا المسجد الذي يوجد فيه هؤلاء الناس بعد مدة لا يبقى منهم أحد، يفارقون هذه الدار، الواحد بعد الآخر، كما نشاهد القرن الماضي والذي قبله والذي قبله، كانوا كثيراً يملئون الأسواق والجوامع وغير ذلك، هل ماتوا جميعاً مرة واحدة؟ إنما يموت الواحد بعد الآخر حتى لا يبقى أحد، وهذا هو الأشهر، وقول من قال بأنه يأخذهم على تخوف يعني على تنقص هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، ومن أهل العلم من فسره بمعنىً أبعد من هذا، قال: {عَلَى تَخَوّفٍ} أي: على عجل، أي: يعاجلهم بالأخذ، ولكن هذا فيه بعد، والله أعلم.

{أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىَ مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبّهُمْ مّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [سورة النحل:٤٨-٥٠].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن، والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال، أي: بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى، قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله -عز وجل-، وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم، وقوله: {وَهُمْ دَاخِرُونَ} أي: صاغرون.

قوله: {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ} التفيؤ يكون بعد انتصاف النهار، والمعنى العام الذي تفسر به الآية {يَتَفَيَّأُ} يعني: يتنقل ذات اليمين وذات الشمال، وإنما يقال له: فيء إذا كان بعد انتصاف النهار، هذا هو الفيء، وما قبله يقال له: ظل، والفيء من فاء إذا رجع، فإذا رجع الظل ثانية بعد أن نسخته الشمس يقال له: فيء، فالظل الثابت الذي يُرى يقال له إذا طلعت الشمس ظل، فلا تزال الشمس تنسخه وينقص حتى يذهب، ولا يبقى إلا فيء الزوال، ثم بعد ذلك تنتقل الشمس إلى الناحية الأخرى فينتقل الظل إلى الجانب الآخر، فهذا الذي ينتقل إلى الجانب الآخر بعدما زال الظل جميعاً يقال له: فيء، انتقل الظل من هذه الناحية إلى هذه الناحية، {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ}، فمن قال: يتنقل ظلاله، ينتقل ذات اليمين وذات الشمال، فهو يرجع إلى هذا المعنى -والله أعلم-.

وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيئه، وذكر الجبال، قال: سجودها فيئها، وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ}، كما قال: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [سورة الرعد:١٥].

قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ}**"، هذا الآية لا شاهد فيها على تنزليهم منزلة العقلاء، لكن الشاهد في الآية التي بعدها؛ لأنه هنا استعمل لفظة "ما" وهي تستعمل لغير العاقل، لكن في الآية الثانية قال: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}، الأصل في غير العقلاء أن يقال: يسجد ما في السماوات، ويقال: وظلالها، فالشاهد أن ما يضاف إلى العقلاء يستعمل في غير العقلاء في حالات معلومة، وهو إذا كان من باب التغليب مثلاً، فالعقلاء أغلب، أو أن يكون من باب الأشرف، وتستعمل الألفاظ الخاصة بالعقلاء في غير العقلاء إذا اشترك غير العقلاء مع غيرهم وكانوا هم الأكثر، وكذلك إذا كان العقلاء أشرف فيعبر بعبارة ترجع إليهم، أو أنه أضاف إلى غير العقلاء فعلاً من أفعال العقلاء، مثل قوله تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}[سورة يوسف:٤]، ما قال: رأيتها لي ساجدة، كما هو الشأن لغير العقلاء يعبر عنها بمثل هذا، وعلة تنزيلهم منزلة من يعقل أنه أسند إليهم فعلاً من أفعال العقلاء وهو السجود.

وقوله: {وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ} أي: تسجد لله، أي غير مستكبرين عن عبادته، {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} أي: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} أي: مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره، وترك زواجره.

{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كَشَفَ الضرّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مّنْكُم بِرَبّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}[سورة النحل:٥١-٥٥].

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه، {وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي دائماً، وعن ابن عباس أيضا: أي واجباً، وقال مجاهد: أي خالصاً له، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[سورة آل عمران:٨٣]، هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي ارهبوا أن تشركوا بي شيئاً، وأخلصوا لي الطاعة، كقوله تعالى: {أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [سورة الزمر:٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ} معروف أن الصيغة هنا صيغة تثنية، {لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ}، فقال: {اثْنَيْنِ} وكان يمكن أن يكتفى بقوله: {وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ} {إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ}، ولكن الغرض التأكيد، ومن أهل العلم من يقول: فيه تقديم وتأخير، أي: وقال الله لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحدٌ إله، والأصل في الكلام الترتيب، ولا حاجة لمثل هذا التكلف، ومن أهل العلم من يقول: إنه قال: {لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ} ليبين أن الأمر الذي أنكره هو التعدد، لا إلى الجنسين، {وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ} فالإله واحد لا يكون متعدداً، ومن أهل العلم من يقول: قال ذلك مبالغة في التنفير عن اتخاذ آلهة وشركاء مع الله -جل جلاله-، {وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ} وهذان المعنيان أقرب من المعنى الأول الذي هو دعوى التقديم والتأخير، {وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ} هل يكون الإله أكثر من واحد؟، فهذا القول مع القول الذي قبله يمكن أن يجتمعا.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً} نقل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره أي: دائماً، ونقل عن ابن عباس: واجباً، ونقل عن غيره: خالصاً له، الدين: المقصود به الطاعة والعبادة، {وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً} قول من قال: أي ثابتاً، أو قول من قال: واجباً، أو قول من قال: مستمراً دائماً، أو نحو ذلك، كل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، والمقصود أن كل من يدان له ويطاع من الملوك والرؤساء والعظماء إنما يدان لهم في مدة محدودة من الزمان ما يلبث الواحد منهم أن يموت أو يعزل، ثم بعد ذلك ينساه الناس، وتنقطع طاعته، فأما الله عز جل فإنه يطاع طاعة مستمرة دائمة، {وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً} أي: دائماً واجباً ثابتاً مستمراً لا ينقطع ولا يزول كما هو الحال بالنسبة لمن يطاع في هذه الدنيا، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لما ذكر تفسير من فسره بأنه خالصاً، قال: "**هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر**، -يعني في الذي قبله وهو "دائماً"-، **وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب**"، {وَلَهُ الدِّينُ} هي خبر متضمن معنى الطلب، حينما يخبر أن الدين خالص له على هذا التفسير، حينما يقول: وله الدين خالصاً، يعني لا تشركوا معه أحداً، ويكون خبراً مضمناً معنى الأمر، مضمناً معنى الطلب، وهذا له نظائر في القرآن، نحو قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ} [سورة البقرة:٢٧٢] هذا خبر، فمن أهل العلم من قال: إنه خبر مضمن معنى الأمر، {وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ} أي: أنفقوا ابتغاء وجه الله، والله يقول في موضع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

آخر: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ} [سورة البقرة:٢٣٣] فهذا خبر بصيغة خبرية، ولكنه بمعنى الأمر والطلب، -والله أعلم-.

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم، {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} أي: لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجئون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به، كقوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً} [سورة الإسراء:٦٧]، وقال ههنا: {ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}، قيل: اللام ههنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل بمعنى: قيضنا لهم ذلك {لِيَكْفُرُوا} أي: يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: {فَتَمَتَّعُوا} أي: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} أي: عاقبة ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} الجؤار: هو رفع الصوت بالضراعة، {تَجْأَرُونَ} أي: ترفعون أصواتكم بتضرع أن يكشف الله عنكم هذا الضر، وما حل بكم، وتفسر اللام بالعاقبة، فيكون معنى الآية: {ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} يعني: أن وقوعهم في الإشراك بعد كشف الضر عنهم يكون عاقبته الكفر بنعمة الله -عز وجل- عليهم، وأصل الشرك هو أظلم الظلم، وذلك أنه وضع العبادة في غير مَن خَلَق، فهو توجه إلى غير المنعم بالعبادة والشكر، فالله الذي خلق وأعطى ورزق هو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له، وعبادته هذه من شكره -تبارك وتعالى-، فإذا وُجه العمل والعبادة إلى غير من خلق، وإلى الذي لم يعطِ ولم يرزق، فهذا من الظلم، فتوجيه العبادة إلى جماد لا يملك نفعاً ولا ضراً، وترك المنعم المتفضل -سبحانه وتعالى- من أعظم الظلم، فتكون {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} للعاقبة بهذا الاعتبار، -والله أعلم-.

وقوله: {فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} من باب التهديد والوعيد مثل: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}[سورة فصلت:٤٠]، ومثل: {قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[سورة الزمر:٨]، والأمر صيغته هذه تأتي لمعانٍ منها التهديد.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سورة النحل: (٥٦-٦٠)].

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله: {فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ}[سورة الأنعام: (١٣٦)] أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه وليقابلنهم عليه، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: {تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ}، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه، فأخطئوا خطأ كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [سورة النجم: (٢٢)].

وقوله ههنا: {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ}: أي عن قولهم وإفكهم، {أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[سورة الصافات: (١٥١-١٥٤)].

وقوله: {وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ}: أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا}: أي كئيباً من الهم {وَهُوَ كَظِيمٌ} ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، {يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ}: أي يكره أن يراه الناس {مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ}: أي: إن أبقاها أبقاها مُهانة لا يورِّثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها {أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ}: أي: يئدها، وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة، ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ {أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}: أي بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه، كقوله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} [سورة الزخرف: (١٧)]. وقوله ههنا: {لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السَّوْءِ}: أي النقص إنما ينسب إليهم، {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}: أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ}، قوله: {لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ} يمكن أن يكون ذلك عائداً إلى العابدين المشركين، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وذلك أنه قال: "**يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم**"، يعني بغير علم منهم لما لا يعلمون حقيقته من معبوداتهم من الأصنام والشياطين إلى غير ذلك، يجعلون لهم نصيباً مما رزقهم الله -عز وجل- فسيَّبوا لهم السوائب، وبحَّروا البحائر، {فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا} إلى غير ذلك مما قص الله -تبارك وتعالى-، يجعلون لهم نصيباً مما رزقهم الله -جل جلاله-، وهذا المعنى تحتمله الآية، ويشهد له قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ}[سورة الحـــج: (٧١)]، المعنى الثاني الذي تحتمله الآية: أن يكون ذلك عائداً إلى المعبودين، يعني {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ}: يعني لهذه المعبودات التي لا تعلم شيئاً عن عبادتهم، فهي غافلة عنهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [سورة الأحقاف: (٥)]، ويكون ذلك من وصف هذه المعبودات، والله قال عنها: {أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} [سورة النحل: (٢١)] كما سبق، وعلى كل حال الآية تحتمل المعنيين، والقرآن يعبَّر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وإذا احتملت الآية معنيين فأكثر ولم يوجد ما يمنع من حملها على هذه المعاني، فيمكن أن تحمل عليها جميعاً، فهؤلاء الكفار يعبدون آلهة مزعومة لا حقيقة لها، ولا يعلمون حقيقتها وإنما هو شيء زينه لهم الشيطان، وهذه المعبودات لا تعلم شيئاً عن عبادتهم، فهي غافلة عن ذلك كله، والله -تبارك وتعالى- أعلم.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**{سَاء مَا يَحْكُمُونَ}: أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله، وفضلوها على جانبه**"، إلى آخر ما ذكر، ثم قال: {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ} إلى أن قال: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى}، البشارة تأتي غالباً معبراً بها عن الإخبار بما يسرُّ، هذا الاستعمال الشائع الذائع، وقد تستعمل قليلاً في الإخبار بما يسوء، كما يقول الله -عز وجل- مثلاً: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الانشقاق: (٢٤)] أو نحو ذلك، وهكذا أيضاً في كلام العرب:

أبَشّرتني يا سعد أنّ أحبتي *** جَفَوني وقالوا: الود موعده القبرُ

وقول الآخر:

يبشرني الغراب ببيْن أهلي *** فقلت له: ثكلتك من بشيرِ

وأشباه ذلك، فقد تأتي لهذا المعنى قليلاً.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} قال: "**أي ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن**"، {كَظِيمٌ} قيل: الذي قد امتلأ غيظاً وغماً وهماً وحنقاً، وقيل: هو الذي يكبت ما به من تغيظ وغم فلا يظهره، وبعضهم يقول: هو الذي يُطْبق فاه، مأخوذ من الكاظمة: وهو سد فم البئر، وهذه المعاني متقاربة، فالإنسان الكظيم: هو الذي قد امتلأ حنقاً، ولكنه يكتم ذلك ولا يظهره، أما الذي إذا غضب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتحركت نفسه تكلم وأفضى بذلك، ولربما شتم، فمثل هذا لا يقال: إنه كظيم، ويعقوب -عليه الصلاة والسلام- لما قص الله -عز وجل- خبره وصفه بذلك، معنى ذلك أنه يكتم حزنه وغمه وقد امتلأت نفسه بذلك، فهذه العبارات التي يذكرونها لا منافاة بينها، لأنه لا يكون موصوفاً بهذا إلا إذا كان يكتمه، والذي يكتمه يقال عنه: ساكت، والذي يكون ساكتاً يعبر عنه بأنه قد أقفل فمه، ولا يكون هذا لمن كان خالي القلب، ليس فيه شيء من الغم أو الغضب أو نحو هذا، وهنا في هذه الآيات **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا}** والمقصود هنا بالسواد: أنه يظهر على وجهه من الكراهة، وينعكس على الوجه؛ فالوجه مرآة للقلب، فإذا أظلم القلب أظلم الوجه، والعرب تعبر عما يحصل للإنسان من الخزي والذل ونحو ذلك بسواد الوجه، يقال: سوَّد الله وجهه، أو اسودَّ وجهه، أو يقولون: فلان سوَّد وجه قومه، أو نحو هذا، وهذا أمر يشاهد ويظهر على وجه الإنسان، والإنسان يعرف في وجهه المحبة والفرح والكراهة والغضب وما إلى ذلك مما يقع في قلبه، فسواد الوجه يكون لما يقع في القلب، تارة يكون بسبب البدعة، وتارة يكون بسبب المعاصي التي تسوِّد الوجه إذا كانت كباراً، أو كانت من الأمور المدنسات للشرف أو نحو هذا، فيظهر السواد على الوجه، حتى إنه يقوى أحياناً فيراه كل أحد، وتارة يكون هذا بسبب ما يعانيه الإنسان من أمر عارض يحصل له من ذلٍّ أو نحو هذا، تقول: فلان وجهه أسود، فأحياناً بسبب الغيظ أو الحقد الشديد، وهذا ظاهر كثير يعرفه كل أحد، حتى إنك لا تستطيع أن تنظر في بعض الوجوه لشدة ما فيها من السواد، وقد تكون بشرة الإنسان سوداء ولكن في وجهه من الصفاء والإشراق ما ينشرح الصدر بالنظر إليه ورؤيته، فليس السواد هو سواد البشرة، إنما السواد هو سواد القلب الذي ينعكس على الوجه فيظلم هذا الوجه، -نسأل الله العافية-، وهناك بعض الأشياء تكون أسرع إلى سواد الوجه -نسأل الله العافية- مثل الذي يحمل الأحقاد على الناس، وليس له شغل إلا الوقيعة في أعراضهم، والتشفي منهم، ورمي الناس بما ليس فيهم، فترى في وجهه من السواد ما لا تراه في غيره.

وعلى كل حال هذا المعنى الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- من استيائهم إذا بشر أحدهم بالأنثى معروف مشهور في كلام العرب، كما قال العقيل بن عُلَّفَة، وكانت عنده بنت يقال لها: الجرباء، خُطبت فقال:

إني وإن سيق إلي المهرُ *** ألفٌ وعبدان - يعني عبيد - وذود عشرُ

أحب أصهاري إليَّ القبرُ

وآخر عنده بنت يقال لها: مودة، يقول:

مودة تهوى عمْرَ شيخٍ يَسرُّه *** لها الموت قبل الليل لو أنها تدري

وقال آخر:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً *** والموت أكرم نزَّالٍ على الحُرَم

يدفن بنته، -يئدها-، ويقول بعد ذلك:

إذا تذكرت بنتي وهي تندبني *** فاضت لعبرة بنتي عبرتي بدمي

أحاذر الدهر يوماً أن يلمّ بها *** فيهتك الستر عن لحم على وضمِ

أخشى عليها فظاظة عم أو جفاء أخٍ *** وكنت أخشى عليها من أذى الكلم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيدفنها، ويغالب نفسه كل ذلك من أجل الخشية على العرض والعار، وكثير من المسلمين اليوم للأسف ضيعوا هذا، وهذا آخر يقال له: عبد الله بن طاهر يقول:

لكل أبي بنت يراعي شئونَها *** ثلاثةُ أصهار إذا حُمِد الصهرُ

فبعل يراعيها وخدر يكنها *** وقبر يواريها وخيرهم القبرُ

يقول: وهذا أفضل الأصهار الثلاثة، وكلامهم في هذا كثير، تجدون في أخبار العرب أشياء من هذا، أحد الأعراب ولدت امرأته بنتاً، وعلى عادة العرب يكرهون البنات، فاعتزل امرأته، ونفر منها، فقالت هذه المرأة المسكينة البائسة، وكنيته أبو حمزة:

ما لأبي حمزة لا يأتينا *** يظل بالبيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنين *** ليس لنا من أمرنا ما شينا -يعني ما شئنا-.

وإنما نأخذ ما أعطينا

والله المستعان.

{الْمَثَلُ الْأَعْلَى} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: أي الكمال المطلق من كل وجه. **{لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ}** فالنقائص منسوبة إليهم، هم ينسبون إلى الله ما يكرهون من البنات، والنصارى نسبوا له الزوجة والولد، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ}**، والمثل يأتي بمعنى الصفة، كما قال الله -عز وجل-: **{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ}** [سورة محمد: (١٥)] الآية، يعني صفة الجنة في هذا الموضع، فالمثل يأتي بمعانٍ متعددة، فهنا **{لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ}**: يعني الصفة السيئة، والله -عز وجل- له المثل الأعلى، له الأوصاف الكاملة، الكمال المطلق من كل وجه، فهو الغني -سبحانه وتعالى-، غني عن الصاحبة والولد، والولد لا يكون إلا من فقر وحاجة، والله منزَّه عن ذلك.

قال ابن القيم -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض}.

فجعل مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال للمشركين وأربابهم، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمالات كلها له وحده؛ ولهذا كان المثل الأعلى وهو أفعل تفضيل: أي أعلى من غيره، فكيف يكون أعلى وهو عدم محض ونفي صرف، وأي مثل أدنى من هذا، تعالى الله عن قول المعطلين علواً كبيراً.

فمثل السوء لعادم صفات الكمال، ولهذا جعله مثل الجاحدين لتوحيده وكلامه وحكمته؛ لأنهم فقدوا الصفات التي من اتصف بها كان كاملاً، وهي الإيمان والعلم والمعرفة واليقين والعبادة لله والتوكل عليه والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والصبر والرضا والشكر، وغير ذلك من الصفات التي اتصف بها من آمن بالآخرة، فلما سلبت تلك الصفات عنهم -وهي صفات كمال- صار لهم مثل السوء، فمن سَلَب صفات الكمال عن الله وعلوه على خلقه وكلامه وعلمه وقدرته ومشيئته وحياته وسائر ما وصف به نفسه فقد جَعل له مثل السوء، ونزهه عن المثل الأعلى، فإن مثل السوء هو العدم وما يستلزمه، وضده المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الموصوف وأكمل كان أعلى من غيره، ولما كان الرب تعالى هو الأعلى، ووجهه الأعلى، وكلامه الأعلى، وسمعه الأعلى، وبصره وسائر صفاته عليا كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى اثنان؛ لأنهما إن تكافآ لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف بالمثل الأعلى أحدهما وحده، ويستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع من إثبات صفات الكمال على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله؛ فإنه في غاية الظهور والقوة، ونظيرُ هذا القهرُ المطلقُ مع الوحدة فإنهما متلازمان، فلا يكون القهار إلا واحداً، إذ لو كان معه كفء له فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفئاً، وكان القهار واحداً، فتأمل كيف كان قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [سورة الشورى: (١١)]، وقوله: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [سورة الروم: (٢٧)]، من أعظم الأدلة على ثبوت صفات كماله سبحانه، فإن قلت قد فهمت هذا وعرفته فما حقيقة المثل الأعلى؟ قلت: قد أشكل هذا على جماعة من المفسرين واستشكلوا قول السلف فيه، فإن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره قالوا: {مَثَلُ السَّوْءِ}: العذاب والنار، ولله المثل الأعلى: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال قتادة: هو الإخلاص والتوحيد، وقال الواحدي: هذا قول المفسرين في هذه الآية ولا أدري لم قيل للعذاب: مثَل السوء وللإخلاص: المثل الأعلى، قال: وقال قوم: المثل السوء: الصفة السوء من احتياجهم إلى الولد، وكراهتهم للإناث؛ خوفَ العيلة والعار، ولله المثل الأعلى: الصفة العليا من تنزهه وبراءته عن الولد، قال: وهذا قول صحيح فالمثل كثيراً ما يرد بمعنى الصفة قاله جماعة من المتقدمين، وقال ابن كيسان: مثل السوء: ما ضرب الله للأصنام وعبدتها من الأمثال، والمثل الأعلى: نحو قوله: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ} [سورة النور: (٣٥)].

وقال ابن جرير: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}: نحو قوله: هو الأطيب والأفضل والأحسن والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه لا إله غيره.

قلت: المثل الأعلى يتضمن الصفة العليا، وعلم العالمين بها، ووجودها العلمي والخبر عنها وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه وذاكريه، فهاهنا أربعة أمور:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله سبحانه في نفس الأمر، علمها العباد أو جهلوها، وهذا معنى قول من فسره بالصفة.

الثاني: وجودها في العلم والتصور، وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه، وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشترك فيه غيره معه، بل يختص به في قلوبهم كما اختص في ذاته، وهذا معنى قول من قال من المفسرين: أهل السماء يعظمونه، ويحبونه، ويعبدونه، وأهل الأرض يعظمونه، ويجلونه وإن أشرك به من أشرك وعصاه من عصاه وجحد صفاته من جحدها، فكل أهل الأرض معظمون له مجلون له خاضعون لعظمته مستكينون لعزته وجبروته، قال تعالى: {بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [سورة البقرة: (١١٦)]. فلست تجد أحداً من أوليائه وأعدائه إلا والله أكبر في صدره، وأكمل وأعظم من كلٍّ سواه.

الثالث: ذكْرُ صفاته والخبر عنها، وتنزيهها عن النقائص والعيوب والتمثيل.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرابع: محبة الموصوف بها وتوحيده والإخلاص له والتوكل عليه والإنابة إليه، وكلما كان الإيمان بالصفات أكمل كان هذا الحب والإخلاص أقوى، فعبارات السلف تدور حول هذه المعاني الأربعة لا تتجاوزها، وقد ضرب الله سبحانه مثل السوء للأصنام بأنها لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. ا.هـ[1].

على كل حال هذه هي الخلاصة: أن المثل الأعلى بمعنى الصفة الكاملة، والكمال المطلق من كل وجه، وهؤلاء لهم مثل السوء، أي النقائص هم أحق بها، وهم أهلها، والله -تبارك وتعالى- هو الكامل في ذاته وصفاته، وأسمائه وأفعاله من كل وجه.

بعض ما ذكره الحافظ ابن القيم هنا يمكن أن يناقش على كل حال في كلامه على المثل الأعلى، بحيث إن هذا التركيب أو هذا اللفظ لا يمكن أن يشترك فيه اثنان من حيث اللغة، وكذلك في كلامه على القهار، فمثل هذا قد يناقش، لكن في الجملة: مثل هذا الكلام لا تكاد تجد من المفسرين من يشرح المثل الأعلى، أو يشرح التفسير عموماً بمثل هذه الطريقة الفذة، والله المستعان.

---

[1] - الصواعق المرسلة: (١٠٣٥/٣)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ مّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبّةٍ وَلَكِن يُؤَخّرُهُمْ إِلَىَ أَجَلٍ مّسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنّ لَهُمُ الْحُسْنَىَ لاَ جَرَمَ أَنّ لَهُمُ النّارَ وَأَنّهُمْ مّفْرَطُونَ}[سورة النحل:٦١-٦٢].

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة: أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر، وينظر إلى أجل مسمى، أي لا يعاجلهم بالعقوبة، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

روى ابن جرير عن أبي سلمة قال: سمع أبو هريرة -رضي الله تعالى عنهما- رجلاً وهو يقول: "إن الظالم لا يضر إلا نفسه، قال: فالتفت إليه، فقال: بلى والله، حتى إن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم"[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ مّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبّةٍ}**، ظاهر هذه الآية العموم فـــ"دابة" نكرة في سياق النفي تفيد العموم، وإذا سبقت بـــ"من" فإن ذلك ينقلها من حيز الظهور في العموم إلى حيز التنصيص الصريح في العموم، فهي نص صريح في العموم، **{مّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبّةٍ}**، فهذا عام لكل الدواب، يدل عليه قوله -تبارك وتعالى- في الآية الأخرى: **{مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ}** [سورة فاطر:٤٥]، ومن أهل العلم من خص ذلك بالكفار، واحتج بالنصوص التي تدل على أنه لا تحمل وازرة وزر أخرى، وأن الله لا يؤاخذ أحداً بذنب غيره، فقالوا: إن هذا العموم الظاهر في اللفظ مراد به الخصوص، وأنتم تعرفون أن العموم ثلاثة أنواع: العام الباقي على عمومه، والعام المخصوص، يعني الذي ورد ما يخصصه، والنوع الثالث: هو العام لفظاً، لكنه خاص في المعنى، يعني أنه أطلق لفظاً عاماً على معنىً خاص، فبعضهم يقول: إن هذا من قبيل العام المراد به الخصوص، **{مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ}** المقصود الكفار؛ لأنهم هم أصحاب الظلم والإجرام العظيم، فالله -عز وجل- يهلكهم، وإن اختلفت عبارات هؤلاء العلماء في المعنى المعبر عنه إلا أن ذلك يرجع إلى ما ذكرت، يعني بعضهم يقول: يهلك الآباء فيهلك بسبب هلاكهم النسل، وينقطع، وبعضهم يقول: يهلك الكفار، والأقرب -والله تعالى أعلم-، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، وتدل عليه النصوص الأخرى: أن المراد بذلك العموم، والنصوص دلت على أن الظالم إذا لم يؤخذ على يده عم الناسَ العذابُ، وأن هذا الظلم والفساد والإجرام يكون سبباً للعقوبات العامة، ما لم يغير ويؤخذ على يد هؤلاء،

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٣١/١٧)، والبيهقي في الشعب (٥٤/٦)، برقم (٧٤٧٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

"أنهلك وفينا الصالحون؟" قال: ((نعم إذا كثر الخبث))[٢]، فيأتي البلاء والعذاب عاماً شاملاً للجميع، وإنما ينجي الله -عز وجل- الذين ينهون عن السوء، وإذا نظرت إلى أعمال الخلق حتى أهل الإيمان منهم، فإن الإنسان لا يخلو من إساءة وظلم، ولا يخلو من تقصير في حق الله -تبارك وتعالى-، ولو يؤاخذنا الله -عز وجل- بذنوبنا لما بقي من الناس أحد، ليس الكلام في الناس فحسب وإنما الكلام في الدواب، قد تموت الجعلان في جحرها، والحبارى في وكرها بسبب ظلم بني آدم، وبغيهم وعتوهم على الله -تبارك وتعالى-، وهذا أمر لا ينكر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إلا منعوا القطر من السماء))[٣]، يعني إذا منع الأغنياء زكاة الأموال، منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، فإذا منع الناس القطر من السماء عم ذلك الجميع، الفقير الذي لا تجب عليه الزكاة أصلاً، والغني، والبهيمة، فهذان قولان، والأقرب حمل الآية على العموم، والضمير في قوله -تبارك وتعالى-: {مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ}، يرجع إلى الأرض، والأرض لم يرد لها ذكر قبل ذلك، فرجع الضمير إلى غير مذكور، وهذا لا إشكال فيه؛ لأنه إذا كان يفهم من السياق فإنه يمكن أن يرجع الضمير إليه، وإن لم يكن له ذكر سابق، كقوله -تبارك وتعالى- على أحد المعنيين في تفسير قوله -جل وعلا-: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [سورة ص:٣٢]، ففسر ذلك بالخير وفسر بالشمس وهو الأشهر، {حَتَّى تَوَارَتْ} أي: الشمس، {بِالْحِجَابِ}، فالشمس لم يرد لها ذكر قبل ذلك، ولكن يفهم من السياق، كقول الشاعر:

أمَاوِيَّ ما يغني الثراءُ عن الفتى *** إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصدرُ

إذا حشرجت: يعني النفس والروح، وذلك لم يرد له ذكر في كلام الشاعر قبله، وكقول الآخر:

حتى إذا ألقتْ يداً في كافر *** وأَجَنّ عوراتِ الثغور ظَلامُها

فرجع الضمير إلى غير مذكور.

وقوله: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ} أي: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} [سورة هود:٩-١٠]، وكقوله: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}[سورة فصلت:٥٠]، وقوله: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً}[سورة

---

(٢) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، برقم (٣١٦٨)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، برقم (٢٨٨٠)، من حديث زينب بنت جحش -رضي الله عنها- زوج النبي -صلى الله عليه وسلم.

(٣) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، برقم (٤٠١٩)، والطبراني في المعجم الكبير(١٢/٤٤٦)، برقم (١٣٦١٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٦)، من حديث عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مريم:٧٧]، **وقال إخباراً عن أحد الرجلين أنه:** {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً}[سورة الكهف:٣٥-٣٦]، **فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً، وهذا مستحيل.**

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ} قراءة غير متواترة: قراءة ابن عباس ومجاهد وأبو العالية {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذُبُ} يعني: الألسنة الكاذبة، {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذُبُ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى}، هذه الألسنة الكاذبة تزعم أن لهم الحسنى، والمعنى على هذه القراءة لا إشكال فيه، ولكن القراءة المتواترة {وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} يمكن أن يقال في معناها -والله تعالى أعلم-: كأنه جعل قولهم هو عين الكذب، فإذا نطقت به ألسنتهم كانت واصفة لهذا الكذب، إذا نطقوا فإن نطقهم هذا يكون وصفاً لكذب، وهذا تعبر به العرب ويعرف في كلامهم، ويكون ذلك كالمبالغة في الوصف، كما يقولون: وجهه يصف الجمال أو الحسن، وعينها تصف السحر، فجعل العين هي الجمال، وجعل الوجه هو الحسن، فإذا قال: يصف وجهه الحسن، فإن ذلك على سبيل المبالغة، تصف عينها السحر، يعني أن عينها هي السحر، لما فيها من الجمال والجاذبية، وفي قراءة "الكُذُب" يكون الكُذُب صفة للألسن.

وفيما يتعلق بالحسنى، قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى}: "**أن لهم الحسنى في الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى**"، {أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى}، الحسنى يمكن أن تفسر بهذا، فهي مؤنثة في الصيغة، يعني أن لهم الخلّة الحسنى، أو الصفة الحسنى، أو نحو ذلك، وفي أسماء الله الحسنى يعني أنها بالغة في الحسن غايته، فالحسنى هنا فسرها بعض أهل العلم بالجنة، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر ما يدل على هذا، كقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى}[سورة فصلت:٥٠] يعني: الجنة، لكن ابن كثير -رحمه الله- عبر بمثل هذه العبارة باعتبار أنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلاً ولا بالجنة ولا بالنار، فهو يقول: {أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى} يعني: في الدنيا، فإذا افتُرض أن يكون البعث حقاً فإن العاقبة تكون لهم، والجنة هي مآلهم ومصيرهم، وابن جرير -رحمه الله- يقول: يوم القيامة: يعني الجنة، وهذا الذي رجحه الشنقيطي، -والله تعالى أعلم-، ووجْهُ كلام ابن كثير -رحمه الله- حتى قال هذا الكلام-: أنهم لا يؤمنون أصلاً بالآخرة، فهم يضيفون إلى أنفسهم الكمالات في الدنيا، وإن كان هناك بعث فتكون الجنة هي مصيرهم، بل قال ابن كثير -رحمه الله-: "**إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى**"، ثم ذكر قول ابن جرير ورجحه، وكلامه الأول أعم من هذا، لأن المفسر أحياناً يكتب على فترات، ويغير بين حين وآخر، وابن جرير تجد له في تفسير الآية الواحدة كلاماً طويلاً، ثم يذكر أقوال السلف، ويفهم من أول كلامه معنىً، وفي آخره إذا جاء يرجح -أحياناً- يقول: قال أبو جعفر، ويذكر كلاماً يُفهم منه معنى آخر.

ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك: {لاَ جَرَمَ} **أي: حقاً لابد منه،** {أَنَّ لَهُمُ النَّارَ} **أي: يوم القيامة** {وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ}، **قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون، وهذا كقوله تعالى:** {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} [سورة الأعراف:٥١]، **وعن قتادة أيضا:** {مُّفْرَطُونَ} **أي: معجلون**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى النار من الفرط، وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة؛ لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها أي يخلدون.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {لاَ جَرَمَ} أي: حقاً، {أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ}، ومفرطون ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لها معنيين، قال مجاهد ومن معه: "**منسيون فيها مضيعون**"، من قولهم: أفرطت فلاناً خلفي أي تركته، إذا خلفته ونسيته تقول: أفرطته، فهذا معنى أنهم متروكون، منسيون، مخلّفون في النار، كما قال الله -عز وجل-: {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} وهذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، يقول ابن كثير: "**عن قتادة**: {مُّفْرَطُونَ} **أي: معجلون إلى النار من الفرط**"، من قولهم: أفرطته في طلب الماء مثلاً، فهذا الفارط هو الذي يسبق الناس ليستقي لهم، ولهذا يقال في الصغير الذي يموت: إنه فرط، كأنه سبق أبويه إلى الآخرة أو الجنة، فالذي يتقدم الناس إلى الماء مثلاً يقال له ذلك، {وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ} على هذا المعنى يكون مفرطون: أي مقدمون إلى النار، معجلون إليها كما نقل عن قتادة، وفي قراءة أخرى في رواية ورش {مُفرِطون} أي: أنهم مسرفون في الذنوب، وهي سبب العذاب، وهناك قراءة أخرى، لكنها ليست متواترة، {وَأَنَّهُم مُفَرِّطُونَ} أي: مضيعون لأمر الله -جل جلاله-، فهذه قراءات ثلاث في هذه الآية.

وبالنسبة للقراءات المتواترة إذا تعددت وكان لكل قراءة معنى فإنها تنزل منزلة الآيات المتعددة، ففي قوله: {مُّفْرَطُونَ} يحتمل معنى أنهم معجلون إلى النار، ويحتمل معنى أنهم متروكون منسيون في النار، وهذا كله تدل عليه هذه اللفظة في كلام العرب، والآية إذا كانت تدل على معنيين فأكثر ولم يوجد مانع من حملها عليها، فإنها تحمل على هذه المعاني جميعاً، ولا منافاة بين هذين المعنيين، فهم معجل بهم إلى النار، ويُتركون وينسون فيها لا يخرجون منها، فكل هذا تدل عليه هذه اللفظة، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والقراءة الأخرى {وَأَنَّهُم مُفرِطون} أي: في الذنوب والمعاصي، مسرفون فيها، فيكون هذا من قبيل ذكر السبب الذي أوجب لهم النار، والله أعلم.

{تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىَ أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ فَزَيّنَ لَهُمُ الشّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاّ لِتُبَيّنَ لَهُمُ الّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللّهُ أَنْزَلَ مِنَ السّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[سورة النحل: ٦٣-٦٥].

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهيدنّك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه، {فَهُوَ وَلِيّهُمُ الْيَوْمَ} أي: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً ولا صريخ لهم، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- أن قوله: {فَهُوَ وَلِيّهُمُ الْيَوْمَ} "**أي: في الآخرة يوم القيامة**"، هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، والآية تحتمل غير هذا، ويمكن أن يكون المراد بذلك الدنيا عامة، ويمكن أن يراد به وقت التزيين في الدنيا، ويمكن أن يكون المراد به بعضاً من الدنيا، أي حينما نزلت هذه الآية {فَهُوَ وَلِيّهُمُ الْيَوْمَ}، وحمل الآية على أن المراد بذلك الآخرة لعله هو الأقرب -والله أعلم-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والولي: هو الناصر، ومعلوم أن هؤلاء لا ناصر لهم، والله -عز وجل- يقول: {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} [سورة الأنبياء:٣٩]، فإذا كان الشيطان هو وليهم فمعنى ذلك أنه لا ولي لهم، فالشيطان لا يستطيع أن ينصرهم ولا أن يمنعهم، بل يقول: {إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ}[سورة إبراهيم:٢٢]: يعني بمنقذكم، فالشيطان يتبرأ منهم، ولا يستطيع أن ينصرهم، وكما قال الله -عز وجل- فيما وقع في يوم بدر: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ}[سورة الأنفال:٤٨]، فهو لا ينصرهم ولا يخلصهم.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبيّن للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، {وَهُدًى} أي: للقلوب، {وَرَحْمَةً} أي: لمن تمسك به {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} أي: يفهمون الكلام ومعناه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[سورة النحل: (٦٦-٦٧)].

يقول تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ} أيها الناس {فِي الأَنْعَامِ}: وهي الإبل والبقر والغنم، {لَعِبْرَةً}: أي: لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه، {نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ} أفردها ههنا عوداً على معنى النعم، أو الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى {مِّمَّا فِي بُطُونِهَا} [سورة المؤمنون: (٢١)]، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} [سورة عبس: (١٢)] وفي قوله تعالى: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ} [(٣٦) سورة النمل]: أي المال.

وقوله: {مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا}: أي يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به.

وقوله: {لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ}: أي لا يغص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنّى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا} دل على إباحته شرعا قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، كما قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} السَّكَر: ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء -وهو الدبس- وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها، قال الله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [سورة يس: (٣٤-٣٦)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً} المقصود بالأنعام هي الأزواج الثمانية التي ذكرها الله -تبارك وتعالى- في سورة الأنعام، {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [سورة الزمر: (٦)]، وقوله: {لَعِبْرَةً} قال: **أي: لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته**، وهذا تفسير بالمعنى، وأصل العبرة، قيل: مأخوذة من العبور وهو التجاوز، كما يقال: عَبرة، استعبَر؛ وذلك لانتقالها من العين إلى الخد، ويقال: مَعْبر؛ لأنه يعبر به من ناحية إلى ناحية، ويقال: هذا عِبرة فاعتبروا، والاعتبار هو النظر في أمرٍ ثم الرجوع، أو الانتقال منه إلى غيره، فتقول: لك في فلان عِبرة بمعنى أنك تنظر فيما جرى له، ثم تنتقل من ذلك إلى نفسك أنت وتعتبر بهذا وتنتفع، وقيل: العاقل من وُعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه، فابن كثير -رحمه الله- فسرها بالمعنى، وقوله هنا: {نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر أنه هنا أفردها عوداً على معنى النعم، فلم يقل: نسقيكم مما في بطونها، وإنما قال: {مِّمَّا فِي بُطُونِهِ} وأعاده مذكراً {بُطُونِهِ}؛ واللبن يخرج من إناثها، ومع ذلك لم يؤنث هنا الضمير، وإنما ذكَّره، لماذا؟ قال: عوداً على الحيوان، فلفظ الحيوان مذكر {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ}، والأنعام حيوانات {نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ}: أي هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى {مِّمَّا فِي بُطُونِهِا} فأنثه، قال: ويجوز هذا وهذا كقوله: {كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} {إِنَّهَا} فأنثها، والتذكرة مؤنثة في اللفظ، ويمكن أن يقال في الكلام: إنه تذكرة، بالتذكير، ويمكن توجيهه باعتبار أنه مؤنث غير حقيقي، والمؤنث غير الحقيقي يمكن أن يعود الضمير إليه مذكراً أو مؤنثاً، أنت مخيَّر، وهكذا في قوله: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ}، والهدية مؤنثة، ثم قال: {فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ} ما قال: جاءت سليمان، يعني الهدية، قال: {جَاء سُلَيْمَانَ}، فهنا يمكن أن يقال: باعتبار أن الهدية مؤنث غير حقيقي، أو يقال: باعتبار {فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ}: أي جاء الوفد، أو جاء المال؛ لأن هذه الهدية مال، بهذا الاعتبار، وهذا له نظائر كثيرة في كلام الله -عز وجل-، وفي كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ *** كأنه في الجلدِ تَوليعُ البَهَقْ

قال: فيها خطوط، ثم قال: كأنه، ما قال: كأنها.

وفي قوله: {لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ} قال: أي لا يغص به أحد؛ ولهذا ابن جرير قال: قيل بأنه لم يغص باللبن أحد {سَآئِغًا}: الذي لا يغص به الإنسان، يشربه دون عناء، وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ} مثل ما سبق، ما قال: تتخذون منها، وثمرات جمع ثمرة، مؤنثة، {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ} يقال فيه كما قيل في السابق.

يقول الحافظ -رحمه الله-: **وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ} دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه**، فالذي عليه ابن كثير -رحمه الله- أن السَّكَر هو المسكر، يعني: ما يسكر مما يتخذ من هذه الثمرات ، وهو الخمر، وعلى هذا تكون الآيات النازلة في الخمر -بهذا الاعتبار-: الآية الأولى: هذه الآية في "سورة النحل"، على سبيل الامتنان، والآية الثانية: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} [سورة البقرة: (٢١٩)]، فذكر هذا وهذا، والآية الثالثة: {لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى} [سورة النساء: (٤٣)]، والآية الرابعة: {إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ} [سورة المائدة: (٩٠)]، فهذه أربع آيات، هكذا قال من فسر السَّكَر هنا بالمسكر، والقول الآخر المعروف في المسألة هو أن هذه الآية لا تعلق لها بالخمر، وأن الله -عز وجل- لا يمتن به على عباده وإنما كانت إباحته أصلية، والفرق بين الإباحة الأصلية والإباحة الشرعية أن الإباحة الأصلية: هي الإبقاء على الحال التي كانوا عليها قبل ورود الشرع، فلا يتعرض لها الشرع أصلاً، ولم يرد فيها دليل يدل على التحريم، ولا على الإباحة بعينها، ولا الاستحباب ولا الوجوب، ويقال لها: البراءة الأصلية، والإباحة الأصلية، وأما الإباحة الشرعية: فهو أن يرد عن الشارع ما يدل على إباحتها بخصوصها، فبهذا الاعتبار إذا امتن بها تكون إباحة لها، فتكون إباحة الخمر قبل التحريم إباحة شرعية.

والذين قالوا: إن هذه الآية ليس لها علاقة بموضوع الخمر قالوا: إن إباحتها كانت أصلية، فإذا جاء ما يرفع الإباحة الأصلية لا يقال له: نسخ، ولهذا يقولون: هذه الآية غير منسوخة أصلاً؛ لأن الشارع لم يتعرض فيها للخمر، إنما هي في العصير فقط، ولذلك بعضهم قال: إن السَّكَر هو الخل، بلغة الحبشة، والخل غير مسكر، وهؤلاء يقولون: الرزق الحسن هو ما يؤكل من الشجرتين، وبعض أهل العلم يقول: السَّكَر هو العصير الحلو الذي يتخذ منها، هذا العصير قيل له: سَكَر، قالوا: لأنه يشتد ويتحول إذا ترك مدة فيكون مسكراً فسمي سَكَراً بهذا الاعتبار، لما يئول إليه لو ترك، وعلى كل حال ابن جرير -رحمه الله- يفسر السَّكَر والرزق الحسن بمعنىً واحد، لا يفرق بينهما، يقول: العبارة مختلفة، ولكن المعنى متحد، فهو يرى أن السَّكَر ما يحل من الطعام والشراب من الشجرتين، هذا كله عند ابن جرير -رحمه الله- يُعد من السَّكَر، ما يحل أن يؤكل وأن يشرب من ثمرات النخيل والأعناب، وهو الرزق الحسن عنده.

ابن كثير -رحمه الله- هنا يقول: **دل على إباحته شرعاً**، هذه الإباحة التي ذكرت لكم الإباحة الشرعية، وعبارته دقيقة، وينبني على هذا أثر وحكم، وهو أن رفعها يقال له: نسخ، فعندهم هذه الآية منسوخة، لأنهم فسروه بالمسكر، بخلاف الآخرين، قال: و**دل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب**، هذا بنص الآية، قال: **وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل**، هذا لم يؤخذ من الآية، قال: **كما جاءت السنة بتفصيل ذلك**، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام))[1]، ((ما أسكر))، وهذا للعموم، فكل نوع من أنواع الأشربة أو الأشياء التي تؤكل، أو عن طريق شم أو وخز بالإبر، أو غير ذلك مما يؤثر على العقل بالإسكار فإنه محرم، ولا يختص ذلك بما يتخذ من الثمرتين.

{وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، ابن جرير -رحمه الله- يقول: التقدير {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ} ما {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، فيوجد مقدر محذوف، يعني "ما" تتخذون منه، حُذف اختصاراً، والكلام يفهم مع حذفه، وبعضهم يقول: إنه معطوف على الأنعام، والتقدير: وإن لكم من ثمرات النخيل والأعناب لعبرة، الله يقول: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً} ثم قال: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا}، فالواو هذه عاطفة على ماذا؟ بعضهم يقول: على قوله: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ}: يعني ومن ثمرات

---

[1] رواه أبو داود: باب النهي عن المسكر: برقم: (٣٦٨١) من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)) وقال الألباني: حسن صحيح.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النخيل تتخذون سكراً، فالعبرة حاصلة بهذا وهذا، بالأنعام وما يخرج من بطونها، والثمرات وما يستخرج منها ويعصر من العصير، كل ذلك فيه عبرة، ولكن المعنى الأول الذي ذكره ابن جرير أقرب من هذا، ويجوز أن يكون معطوفاً على قوله: {مِّمَّا فِي بُطُونِهِ}، يقول: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ}، {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ}: يعني نسقيكم من ثمرات النخيل سَكَراً، سواء قلنا: إنه العصير أو المسكر، وعلى كلٍّ، منهم من يقول: إن قوله: {وَمِن ثَمَرَاتِ} متعلق بقوله: {تَتَّخِذُونَ}، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} فهو متعلق به، وهذا القول قول له وجه من النظر ظاهر، أما ارتباطه بالعبرة -{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً}: يعني وفيما تتخذون- ففيه بعد، والله وأعلم.

في قوله: **السَّكَر ما حرِّم من ثمرتيهما**، نقل هذا عن ابن عباس، **والرزق الحسن: ما أحل من ثمرتيهما**، هذا هو المشهور، وفي رواية: "السَّكَر حرامه، والرزق الحسن حلاله". طيب كيف يمتن به؟ يكون ذلك قبل التحريم، وعلى كلٍّ هذا قول الجمهور، أن السَّكَر هو المسكر، وأن الآية كانت قبل التحريم، وعلى هذا تكون منسوخة، والرزق الحسن حلاله.

يقول: **وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس**، المقصود بالدبس: ما يسيل من التمر يسمونه عسل التمر.

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل: (٦٨-٦٩)].

المراد بالوحي هاهنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة في غاية الإتقان في تسديسها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها، أي: مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}: أي مطيعة، فجعلاه حالاً من السالكة، قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [سورة يس: (٧٢)] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم، والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح.

في قوله: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي} الإيحاء هنا قال: بمعنى الإلهام، وهذا صحيح، ليس معنى ذلك أن نزل عليها وحي بالمعنى المعروف كإرسال الملك أو نحوه، وإنما الإلهام والوحي كما قال الله -عز وجل-: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى} [سورة القصص: (٧)]، {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي} [سورة المائدة: (١١١)]، فيكون أحياناً لبعض بني آدم غير الأنبياء، وقد يكون أيضاً من قبيل الإلهام {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}، وقد يكون ما يسمى بالوحي التسخيري لبعض الجمادات، {وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا} [سورة فصلت:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١٢)] على هذا التفسير، إلى غير هذا من الأنواع، على كل حال {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}، بعض العلماء يقول: الترتيب هنا جاء بحسب الأفضل والأكمل ثم الأدنى، من الأعلى إلى الأدنى؛ بأن العسل الذي يكون في الجبال أفضل من العسل الذي يكون في الشجر، وهكذا، ثم بعد ذلك {وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} مما يضعه الناس من الصناديق أو الأشياء المعروشة التي تكون للنحل.

وقوله: {ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}، قوله: {ذُلُلاً} هذه حال إما من السبل، أي: اسلكي سبل ربك مذللة، تسلك السبل مذللة، وهذا هو الأقرب وهو المتبادر، ويحتمل أن يكون حالاً من النحل، {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}: أي مذللة طائعة لله -تبارك وتعالى-، لا تخرج عن أمره وتسخيره، فألهمها ذلك، هذا معنى وهذا معنى، والآية تحتمل المعنيين، وابن جرير -رحمه الله- حملها على الأمرين، بناء على القاعدة التي ذكرتها في مناسبات شتى وهي: "أن اللفظ إذا احتمل معنيين فأكثر ولم يوجد مانع من حمله عليها فإنه يحمل على الجميع"، فهنا {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}: أي هذه السبل مذللة لك، وهي أيضاً في الحال هذه: النحل طائعة مستجيبة لله -تبارك وتعالى-، سخرها هذا التسخير، ولا إشكال في هذا إن شاء الله.

هذه السبل مذللة لها بمعنى أنها تسلكها من غير مشقة ولا عناء ولا تعب، وإنما تسير فيها كما تشاء، والذين يعرفون النحل وكتبوا فيه ذكروا أشياء عجيبة من طرق اهتداء ومعرفة النحل الأماكن التي تأوي إليها، الخلية نفس الخلية، كل نحلة تذهب إلى خليتها، ما تذهب إلى خلية أخرى، ولو ذهبت إلى خلية أخرى فإن الحرس الذين يكونون على الخلية يقتلونها، فلا بد أن ترجع إلى نفس خليتها، ولو كانت خلايا كثيرة جداً متجاورة، كل نحلة ترجع إلى نفس خليتها، ولا تضيع، وتكلموا كيف تعرف هذه النحل المكان الذي تأوي إليه، وكيف تسير بزوايا معينة، وإذا رأت مكاناً يصلح للمرعى كيف تأتي وتخبر النحل في الخلية ليصلنَ إليه، وأين تجمع ما تأخذه في داخلها، ففي داخلها وعاءان، وعاء لغذائها الخاص بها، هي التي تأكله، وتعيش عليه وتقتات منه، ووعاء آخر مثل الخزان للعسل، هذا لا تعيش عليه، فتذهب به وتفرغه، وبعض النحل لا يحمل العسل، وإنما يحمل الماء، يذهب إلى الأماكن التي فيها ماء ويأتي به إلى الخلية، للأغراض التي يحتاج فيها إلى الماء، فهي تنقل ماء فقط، فلو عصرتها على ورقة أو نحو هذا ما يخرج إلا ماء، فهي صهريج يذهب ويحمل ويأتي فقط، والبقية يحملن العسل، وهناك ما دوره الحراسة، والملكة كما تعرفون هي التي تضع البيض، والشاهد هو حال النحل في تسخير الله -عز وجل- لها، وكيف تبني هذه الخلايا بهذه الطرق السداسية، وذلك آية من آيات الله -جل جلاله-، ولعله يأتي كلام على هذا -إن شاء الله تعالى- في الكلام على الأسماء الحسنى، وفي الكلام على اسم الله "الخالق"، ومن أراد أن يتوسع في هذا يمكن أن يرجع إلى بعض المؤلفات، مثل كتاب [غريزة أم تقدير إلهي؟]، هذا كتاب مفيد، ويوجد أيضاً شريط كامل عن النحل وعن كل ما يتعلق بها، في شريط سي دي أو فيديو، كل ما يتعلق بالنحل من معلومات.

وهكذا المعنى الآخر {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً}: أي أنك ذليلة مطيعة مستجيبة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تتمة تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ} [سورة النحل:٦٩] الآيات.

وقوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها، وقوله: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} أي: في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس، لكان دواء لكل داء، ولكن قال: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ}، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشيء يداوى بضده.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه-: أن رجلاً جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: ((اسقه عسلاً))، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يارسول الله سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقا، قال: ((اسقه عسلاً))، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يارسول الله، ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اذهب فاسقه عسلاً))، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً))[١] فذهب فسقاه عسلاً فبرئ.

وفي الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يعجبه الحلواء والعسل[٢]، هذا لفظ البخاري، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشفاء في ثلاثة: في شرطة مِحجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي))[٣].

وقوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} أي: إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء، لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها، ومقدرها، ومسخرها، وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل، القادر، الحكيم، العليم، الكريم، الرحيم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الدواء بالعسل، برقم (٥٣٦٠)، ومسلم، كتاب السلام، باب التداوي بسقي العسل، برقم (٢٢١٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأشربة، باب شراب الحلوى والعسل، برقم (٥٢٩١)، ومسلم، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينوِ الطلاق، برقم (١٤٧٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، برقم (٥٣٥٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الحافظ -رحمه الله- في قوله: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ}: "**قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء، ولكن قال: {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} أي: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار والشيء يداوى بضده**"، ووجه هذا القول أن "شفاء" نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات لا تفيد العموم؛ ولذلك يوجد فرق بين هذا الموضع وبين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الشفاء في ثلاث))[٤]، وقوله: **قال**: ((الشفاء في ثلاثة))[٥] فدخول "ال" هنا إذا كانت "ال" هذه معرّفة فإن ذلك يكون للعموم، الشفاء كل الشفاء، وأما هنا فـ{فِيهِ شِفَاءٌ}، ومن أهل العلم من يقول: إذا استعمل العسل منفرداً كان شفاءً لبعض الأدواء، وإذا خلط مع غيره من المركبات والمعاجين فهو شفاء لكل الأدواء بالتركيب، -والله تعالى أعلم-، ثم إن الله -عز وجل- قال: {فِيهِ شِفَاءٌ} ولم يقل: دواء؛ لأن الدواء قد ينفع وقد يضر، وقد لا ينفع ولا يضر، فذكر النتيجة، فقال: {فِيهِ شِفَاءٌ} وهذا أبلغ ما يكون، وقوله -تبارك وتعالى-: {فِيهِ شِفَاءٌ} قال بعض أهل العلم من السلف وبعض من جاء بعدهم: إن المقصود به القرآن، هذا القرآن الذي قصصنا عليكم فيه القصص، وذكرنا فيه العبر فيه شفاء للناس، وهذا بعيد، والكلام فيما يخرج من بطون هذه المخلوقات العجيبة الصغيرة، ثم قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [سورة النحل:٦٩]، آية فيما ألهمها الله -تبارك وتعالى- وصرفها هذا التصريف، ودبرها هذا التدبير العجيب، وما يخرج من بطونها ويتحول إلى هذا الشفاء، ففيها عبرة بالغة من كل وجه، هذه النحلة حينما تنطلق وتبحث عن الأزهار أو المرعى ثم تأتي وتقوم بتصرفات عجيبة؛ من أجل أن يعرف بقية النحل هذا المرعى، فيجتمع حولها النحل، ثم بعد ذلك تبدأ تدور وتصدر صوتاً، وهذا الدوران بقدر بُعْد المكان، ثم يبدأ يدور حولها كل هؤلاء النحل من العاملات، يدرْنَ حولها مرة، ثم بعد ذلك يدرْن مرة ثانية، ثم يدرْن مرة ثالثة تأكيداً للمكان، أين هو بالضبط، ثم تنطلق مع هذه النحل إلى هذا المكان، وقد يكون بعيداً، وترجع كل واحدة محملة، وأما حبوب اللقاح فتضعها في بعض أطرافها، وهذه الجيوب لا توجد إلا في هذه الشغالة التي تمتص رحيق الأزهار، فتأتي محملة بهذا الرحيق، وتأتي محملة بحبوب اللقاح، وأصحاب النحل يعرفون أحياناً المرعى الذي ذهبت إليه، يعرفونه مما يتساقط أحياناً عند الخلية من هذه الحبوب، فيعرف من أين أخذت، ونوع الغذاء الذي تغذت عليه، فإذا ضاعت وذهبت إلى مكان آخر استقبلها الحرس الذي على باب الخلية ودفعوها، فإن أصرت قتلوها ولكنها لا تدخل خليتهم، وإنما ترجع إلى خليتها، وأخبارها في هذا عجيبة، فهي آية من آيات الله، وطريقة تركيب هذه الخلية والشمع، وكيف تصنعه؟! أمر عجيب.

{وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمّ يَتَوَفّاكُمْ وَمِنكُم مّن يُرَدّ إِلَىَ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [سورة النحل:٧٠].

---

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب الطب، باب الكي، برقم (٣٤٩١)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٣٧/١١)، برقم (١٢٢٤١)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١١٥٤).

(٥) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، برقم (٥٣٥٦)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم -وهو الضعف في الخلقة-، كما قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً} [سورة الروم:٥٤].

وقوله: {لِكَيْلا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً} أي: بعدما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفَنَد والخرف؛ ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يدعو: ((أعوذ بك من البخل والكسل والهرم، وأرذل العمر وعذاب القبر، وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات))[٦]. وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة:

سئمتُ تكاليف الحياة ومن يعش *** ثمانين عاماً لا أبا لك يسأم

رأيتُ المنايا خبطَ عشواء مَن تُصب *** تمتْه ومن تُخطئ يُعمَّر فيهرم

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} [سورة الحـج:٥]، أرذل الشيء هو أردؤه وأحطه، وأرذل العمر يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة**"، الله -عز وجل- قد بيّن هذا، فقال: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}، فهذا هو الذي يفسر به أرذل العمر، خلافاً لمن حد ذلك بسنة معينة فقال: إذا بلغ الخامسة والسبعين فهذا هو أرذل العمر، وبعضهم يقول: إذا بلغ التسعين، والصحيح أن مثل هذا لا يُحدّ؛ لأن الناس يتفاوتون، فمنهم من يبلغ الخامسة والسبعين وهو أحسن حالاً من ابن الخمسين، ومنهم من يبلغ التسعين وهو أحسن حالاً من ابن الستين، ويكون ممتعاً بسمعه وبصره وقواه، ولم يتغير، لكن أرذل العمر هو أن يتحول الإنسان إلى ما وصف الله -عز وجل-: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}، والأطباء يقولون: إن خلايا المخ عند الإنسان إذا تقدم به السن يموت بعضها، فإذا مات بعضها أصبح الإنسان يخلط، يدخل عليه ولده فيقول: من هذا، وتجلس عنده زوجته فيقول: هذه من؟، ويخرج من بيته ما يعرف يرجع، يحجرون عليه في البيت، يقفلون الأبواب مثل الطفل الصغير تماماً، يقفلون الباب على هذا الكبير الذي ربما كان صاحب رأي وحزم وقوة، يعامل كما يعامل الطفل الصغير، لا يخرج، انتبهوا له، لا أحد يترك الباب مفتوحاً، ولا يعرف عبادة ولا يعرف صياماً، ولا يعرف شيئاً، إذا قيل: تصوم؟ قال: نعم أنا صائم، وبعدها بلحظات يطلب الطعام، ويصلي ويتلفت، كالطفل الصغير، فهذا هو أرذل العمر، لكن الطفل الصغير ينتظر فيه الكمال، فليس هو بأرذل العمر، المرحلة التي يمر بها الصغير انتقال من نقص إلى كمال، هذا المنتظر فيه، وأما هذا فلا يرجى فيه بعد ذلك إلا المزيد من الضعف ثم الموت، ويحتاج إلى غيره في أخص شئونه، يضعف تماماً عن القيام بنفسه فضلاً عن أن يقوم بغيره فهذا أرذل العمر، وهو أصعب الأشياء على نفس الإنسان، ولذلك إن كان معه شيء من الإدراك والعقل فإن ذلك ربما يمرضه مرضاً فوق مرضه، واعتلالاً فوق علته أن يكون كَلاً على غيره، عبئاً عليهم، نسأل الله العافية، والعلماء ذكروا أن صاحب القرآن، وأهل القرآن لا يصلون إلى هذه المرحلة، لا يحصل لهم هذا الخرف، وذكر جماعة من أهل العلم، أن العلماء لا يردون إلى أرذل العمر، وبعضهم يربط بين هذه الآية

---

(٦) رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة الحجر، باب {وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ} [سورة النحل:٧٠]، برقم (٤٤٣٠)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره، برقم (٢٧٠٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبين قول الله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} [سورة التين:٥]، ثم استثنى فقال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [سورة التين:٦]، ففسروا قوله: {أَسْفَلَ سَافِلِينَ} بأرذل العمر، وقالوا: يستثنى منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لكن الذي يظهر -والله أعلم- أن الآية هذه تتحدث عن أمر آخر، وليس أرذل العمر أو المراحل العمرية الطبيعية التي يمر بها الإنسان، فإن مراحل عمر الإنسان كما يقسمها بعضهم: مرحلة النشوء، ثم مرحلة الوقوف، التي هي مرحلة الشباب، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الضعف المحدود، بداية الضعف يعني: مرحلة الكهولة، ثم بعد ذلك يأتي الضعف الظاهر، وهي مرحلة الشيخوخة، يقولون: يمر بمرحلة الطفولة بتقسيماتها، من صبىً وغيره، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الشباب، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الكهولة، وبعضهم يحد الكهولة بالثلاثين، فإذا بلغ الثلاثين كان كهلاً، يأخذون هذا من قوله تعالى: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً} [سورة آل عمران:٤٦] قالوا: إن عيسى -عليه الصلاة والسلام- رفع وهو في الثالثة والثلاثين أو قريباً من هذا، والله المستعان.

في قول زهير: **رأيتُ المنايا خبطَ عشواء**، هذا الكلام غير صحيح، وكل شيء بقدر الله -تبارك وتعالى-.

{وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} [سورة النحل:٧١].

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، فقال تعالى منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم؟، كما قال في الآية الأخرى: {ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [سورة الروم:٢٨] الآية، قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟، فذلك قوله: {أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟.

وقوله: {أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} أي: أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره، وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه-: "واقنع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضَّل بعض عباده على بعض في الرزق بلاءً يبتلي به كُلاً، فيبتلي من بسط له كيف شكْره لله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله؟". رواه ابن أبي حاتم.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الظاهر المتبادر من قوله: {فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ}، أي أنتم لا تفعلون، وتأنفون من هذا، فتستنكفون أن تردوا ما أعطاكم الله -عز وجل- من الإفضال والإنعام والرزق إلى عبيدكم ومماليككم، فهم لا يملكون شيئاً معكم، وما بأيديهم فهو ملك لكم، ثم أنتم تشركون مع الله -عز وجل- غيره، وتضيفون إليهم ما ليس لهم وهم عبيد مربوبون لله -تبارك وتعالى-، وأما قول من قال: إن المقصود بذلك هو الإنكار عليهم أو أن هذا مضمن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للأمر والحث على أن يواسوا هؤلاء المماليك فيلبسوهم مما يلبسون، ويطعموهم مما يطعمون، فهذا بعيد، ليس هذا الذي يدل عليه ظاهر القرآن، -والله تعالى أعلم-.

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[سورة النحل:٧٢].

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد، قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: بنين وحفدة: وهم الولد وولد الولد، وقيل: الخدم والأعوان، وقيل: الأختان، وقيل: الأصهار، قلت: فمن جعل {وَحَفَدَةً} متعلقاً بـ{أَزْوَاجِكُم}، فلابد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة.

وقوله: {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} أي: من المطاعم والمشارب، ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: {أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ} وهم الأنداد والأصنام، {وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} أي: يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره، وفي الحديث الصحيح: ((إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرك تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟))[٧].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً}، يقال: حَفَدَ إذا أسرع في الخدمة، فالحَفْد هو الإسراع في الخدمة، هكذا فسره أئمة اللغة كالخليل وأبي عبيد القاسم بن سلام، وأمثال هؤلاء.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: {بَنِينَ وَحَفَدَةً}، "**وهم الولد وولد الولد**"، وهذا القول هو الأظهر، وهو المتبادر إذا أردنا أن نرجح واحداً من هذه الأقوال، فالحفدة هم الأولاد وأولاد الأولاد، وهذا المعنى اختاره ابن العربي والقرطبي والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمهم الله الجميع-، قال: "**وقيل: الخدم**"، ومعلوم أن الأولاد وأولاد الأولاد يخدمون الإنسان ويسرعون في خدمته، "**وقيل: الخدم والأعوان، وقيل: الأختان**"، هذا قال به جماعة من السلف، والختن: مَن كان مِن قِبل المرأة، فقرابة المرأة، يقال لهم أختان، كابنها وأخيها، يعني ابن المرأة من غيرك، إن كانت متزوجة قبل ذلك، والأصهار ما كان من قبل الزوج، وما كان من قبل الزوجة أيضاً يقال لهم: أصهار، فالشاهد أنه قال: "**قيل: الأختان وقيل: الأصهار**"، بمعنى أن الأصهار مثلاً أزواج البنات ممن يسارع في الخدمة إذا كان الإنسان قد صاهر أناساً كرماء وفضلاء، وقد يبتلى بغيرهم، كما يقول العامة: "النسب نشد"، فقد يبتلى بحنظل فلا يلقى منهم إلا الأذى والشقاء، لكن من حيث الأصل، يعني من قال هذا فهو باعتبار أن مثل هؤلاء إذا كانت نفوسهم كريمة فهم ممن يكونون كذلك، ويقول الحافظ -رحمه الله-: "**فمن جعل {وَحَفَدَةً} متعلقاً بـ{أَزْوَاجِكُم}**"، يعني يكون {وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً}، ويحتمل {وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ} ثم قال: {وَحَفَدَةً}

---

(٧) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يحتمل أن يكون متعلقاً بالأزواج، ثم قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**فلابد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد، والأصهار؛ لأنهم أزواج البنات**"، فهذا له تعلق بالزوجات، أو أولاد الزوجة، وابن جرير -رحمه الله- حملها على هذه المعاني جميعاً باعتبار أن الحَفْد هو الإسراع في الخدمة، فقال: هذا يحصل بالأولاد وأولاد الأولاد وأزواج البنات والخدم والأعوان والمماليك، فكل هؤلاء ممن يسرع في الخدمة يقال لهم: حفدة.

فائدة:

الرقية هي من باب الطب والتداوي، والأصل في باب الطب الإباحة، ما لم يشتمل على محرم، فكل ما دلت التجربة على أنه ينفع ويفيد بإذن الله وليس فيه محظور فإنه جائز، هذه قاعدة الطب في الشريعة، والرقى هي من الطب، شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول بأن المرعوف يكتب على جبهته {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي} [سورة هود:٤٤] إلى آخر الآية، فيتوقف الرعاف، ويقول: مجرب، فإذا كان كذلك فلا إشكال فيه، مع أنه لم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهكذا كثير من الرقى ما وردت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((علميها رقية النملة))[٨]، ولم تتعلم منه أصلاً -عليه الصلاة والسلام-، وقال للقوم: ((اعرضوا عليّ رقاكم))[٩]، فما لم يشتمل على منكر أو شرك أو نحو هذا فلا بأس به، فقد تكون الرقية بالقرآن أو بالسنة أو بكلام آخر ليس فيه محرم، لا شرك ولا كلام غامض لا يفهم أو نحو هذا، فلا إشكال، وابن القيم -رحمه الله- يذكر أن الإنسان إذا أصابه خوف مثلاً يقرأ آيات السكينة، {ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ} [سورة التوبة:٢٦] الآيات هذه، يجمعها ويجلس يقرأها، يهدأ، أو يُرقى بها، وكذلك الإنسان الذي يعاني من قلة النوم والأرق يمكن أن تقرأ عليه آيات، وفي العين ممكن أن تركز على {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} [سورة القلم:٥١]، والقرآن كله شفاء، وهذا يُعرف أثناء الرقية، فأحياناً عند رقية الممسوس إذا مررت على بعض الآيات يشتد هذا عليه جداً، ويطالب هذا الجني المتلبس فيه أن يخرج ويقول: أنا أتوب، وأنا سأتركه لكن لا تقرأ، عند بعض الآيات أحد الناس صرع وكان يسمع سورة النور، فلما وصل عند {لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ} [سورة النور:٢٧]، صاح بأعلى صوته، وقال: أنا سأخرج، أعاهدكم على الخروج، فمثل هذه الأشياء أحياناً تكتشف أثناء القراءة، إذا قرأت سورة الصافات، ووصلت عند قوله تعالى: {وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} [سورة الصافات:٨-٩]، يتقطع.

---

(٨) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى، برقم (٣٨٨٧)، عن الشفاء بنت عبد الله -رضي الله عنها- قالت: دخل عليّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأنا عند حفصة فقال لي: ((ألا تعلمين هذه رقية النملة (النملة قروح تخرج في الجنبين) كما علمتيها الكتابة))، وأحمد في المسند (٤٦/٤٥)، برقم (٢٧٠٩٥)، وقال محققوه: رجاله ثقات، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٧٨)، وفي مشكاة المصابيح برقم (٤٥٦١).

(٩) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، برقم (٢٢٠٠)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي -رضي الله عنه- قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: ((اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}[سورة النحل: (٧٣-٧٤)].

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون مَن دونه من الأصنام والأنداد والأوثان {مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا}، أي لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}: أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً؛ {إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}: أي إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ}.

قوله: {شَيْئًا} هنا يحتمل أن يكون بدلاً من الرزق، {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا} ما لا يملك لهم شيئاً، والمعنى على هذا ظاهر، ويحتمل أن يكون {شَيْئًا} منصوباً بإيقاع الرزق عليه، {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا}: أي: ما لا يملك لهم رزقاً شيئاً، يعني لا يرزقهم شيئاً، والذي لا يملك شيئاً من الرزق لا يستحق أن يكون إلهاً يعبد، ويمكن أن يكون توكيداً لقوله: {لاَ يَمْلِكُ}.

{ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [سورة النحل: (٧٥)].

قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا} معلوم أن العبد مملوك، فهذه صفة كاشفة، ولماذا جيء بها هنا؟، لماذا لم يقل الله -عز وجل-: "ضرب الله مثلاً مملوكاً" أو "مثلاً عبداً"؟ يمكن أن يقال بأن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجميع هم عباد الله -عز وجل-، وإنما المقصود هنا بالعبد: الرقيق الذي يباع ويشترى، وليس المراد بالعبودية هنا العبودية لله تعالى، {عَبْدًا مَّمْلُوكًا}، ووصفه هنا بأنه {لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ}؛ وهذا وصف آخر، {عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} هذه الصفة الثالثة، ويمكن أن يقال: جيء بهذه الصفة باعتبار أن المكاتب يملك بعض التصرف، وهو لا زال يتصف بالرق، وهكذا أيضاً المأذون له من الأرقّاء في بعض التصرف، لكن هذا عبد مملوك غير مأذون له ولا يملك شيئاً من الحرية، فرقّه رقٌّ كامل، وهذه الآية ورد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنها نزلت في هشام بن عمر ومملوك له، هشام بن عمر كان ينفق ويبذل، وهذا المملوك بخلافه تماماً بل كان ينهاه عن النفقة، ويحثه على تركها، وهذا المملوك يقال له: أبو الجوزاء.

يقول هنا: **قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن** {عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} هذا هو الكافر، {وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا} هذا المسلم، قال: **وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير**، وقال مجاهد: **هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى**، للوثن: يعني لما عُبد من دون الله، يعني للآلهة المزعومة التي تعبد من دون الله، فالعبد المملوك المقصود به الوثن الذي لا يملك نفعاً ولا ضراً، والذي يتصرف التصرف المشار إليه من آتاه الله مالاً فهو ينفق منه سراً وجهراً، فيكون مثلاً ضربه الله -عز وجل- لنفسه، فهل يستوي هذا وهذا؟، وبعضهم يقول: هذا المثل ضربه الله -عز وجل-: العبد المملوك للوثن، ومن أعطاه الله مالاً ينفق منه سراً وجهراً هذا لعابد الوثن، فهو خير منه وأشرف منه، كيف يعبد حجراً؟ كيف يعبد ما لا يملك ولا ينفع ولا يضر؟ كيف ينحط الإنسان إلى هذه المرتبة؟!.

وقوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً} [سورة هود: (٢٤)]: يعني لا يستويان في الصفة بوجه من الوجوه وحال من الأحوال، فأين من يملك التصرف ومن لا ينفع ولا يضر ولا يملك هو شيئاً لنفسه، ولا يشعر بعابديه؟، ومعنى {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً}: أي لا يستويان مثلاً، ونفي الاستواء يحمل على أعم المعاني، لا يستويان في شيء من الأشياء بحال من الأحوال، لا في القدرة ولا في التصرف ولا في الملك، وقوله -تبارك وتعالى-: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} {بَلْ أَكْثَرُهُمْ} وصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون يمكن أن يقال بأن إطلاق ذلك على الأكثر يراد به الكل، وهذا كثير في القرآن، وأحياناً يعبر بعبارة أخرى، كأن يقول: {فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [سورة البقرة: (٨٨)] أو نحو هذا باعتبار أن القليل ينزل منزلة العدم، أي لا يؤمنون أو لا يعقلون، وهنا {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} عبر بالأكثر وأراد الكل، باعتبار أن ما خرج عن الأكثر غير معتبر؛ لأن الشاذ والقليل لا حكم له، ويمكن أن يكون هذا باعتبار الخلق عموماً {بَلْ أَكْثَرُهُمْ}: يعني أكثر الخلق، {لاَ يَعْلَمُونَ} وقليل من هؤلاء الخلق هم أهل الإيمان والعلم الذين يعبدون الله -عز وجل- ولا يشركون به شيئاً، ويحتمل أن يكون المراد بذلك أهل الإشراك باعتبار أن أكثر المشركين لا يعلمون، وفيهم من يعلم ولكنه لم ينتفع بعلمه، ويوجد قلة منهم يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا حقيقة لها، والله أعلم.

{وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [سورة النحل: (٧٦)].

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كَلٌّ أي عِيال وكلفة على مولاه {أَيْنَمَا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُوَجِّههُ}: أي يبعثه {لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ} ولا ينجح مسعاه {هَلْ يَسْتَوِي} مَن هذه صفاته {وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ}: أي بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة، {وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم.

هنا نقل عن مجاهد -رحمه الله- مثل ما جاء في المثل الأول، فهو يرى أن المثل الأول {عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ} في الوثن وفي الله -تبارك وتعالى-، وهذا المثل الثاني أيضاً يرى أنه كذلك، وابن جرير -رحمه الله- وافقه في هذا المثل الثاني على أنه في الله وفي الوثن، وأما في المثل الأول فوافق ابن عباس، في أنه مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن، وابن عباس -رضي الله عنهما- يقول في المثل الثاني كما قال في المثل الأول، فصار عندنا الآن قول مجاهد أنه في الله وفي الوثن، المثل الأول والثاني، وقول ابن عباس أنه في الكافر والمؤمن في الأول والثاني، وابن جرير وافق ابن عباس في المثل الأول ووافق مجاهداً في المثل الثاني، وهذا المثل الثاني: {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ} جاء أيضاً عن ابن عباس أنها نزلت في عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وكان عنده مملوك يكره الإسلام، وهو كما وصفه الله -عز وجل- {كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ}، وعلى كل حال هذا مثل، وكما نعلم "العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب"، فالله يضرب لهؤلاء الأمثال في عبادتهم لغير الله -تبارك وتعالى- كيف يعبدون من لا يضرهم ولا ينفعهم، كيف يعبدون العاجز الذي لا يملك التصرف، ويتركون الله -تبارك وتعالى- وعبادته الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، ويملك النفع والضر.

{وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة النحل: (٧٧-٧٩)].

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء، في علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالَف ولا تمانَع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر: (٥٠)]: أي: فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} كما قال: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان: (٢٨)]. ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زِيدَ في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشدَّه، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه))[1] فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله -عز وجل-، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله -عز وجل-، مستعيناً بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله: ((ورجله التي يمشي بها: "فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي))

ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [سورة النحل: (٧٨)] كقوله تعالى في الآية الأخرى: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [سورة الملك: (٢٣-٢٤)]، ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} [سورة الملك: (١٩)] وقال ههنا: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ}، {إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ} يحتمل أن يكون المراد أن الله -تبارك وتعالى- قادر على أن يأتي بها في لمح البصر أو أسرع من لمح البصر، وكما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [سورة القمر: (٥٠)]، وبعض أهل العلم يقول: هذا في قربها عند الله -تبارك وتعالى- أي {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ} في قربها بالنسبة لله -تبارك وتعالى- إلا كلمح البصر أو هو أقرب، وأما بالنسبة إلى الكفار الذين يستبعدون وقوعها فهي بعيدة الوقوع، لا يتوقعون وقوعها ولا يرجون ذلك، والله -عز وجل- يقول: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا} [سورة المعارج: (٦-٧)]: أي يوم القيامة، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن المراد بذلك أن وقوع الساعة كلمح البصر، أي: أنها تقع بسرعة، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي يذكر فيه قيام الساعة، وذكر فيه أموراً منها: أن الرجلين يتبايعان الثوب فينشرانه فتقوم الساعة ولا يقع هذا البيع، والآخر الذي يصلح حوضه فلا يسقي منه، والآخر الذي يرفع الإناء إلى فيه ليشرب فلا يشربه[2]، وهكذا، فشأنها كما وصف من سرعة وقوعها، {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ}، وهذا يدل على كمال قدرة الله -تبارك وتعالى-.

وقوله -تبارك وتعالى-: {أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} هذا يقال فيه ما قيل في بعض نظائره، كقوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}[سورة الصافات: (١٤٧)]، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[سورة طه: (٤٤)]، والله يعلم أنه لا يتذكر ولا يخشى، لكن عبر بلعل، {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ} التي للترجي، فمثل هذا -كما ذكرنا من قبل- من أهل العلم من يقول: إن الخطاب أو الكلام خرج فيه بحسب نظر المخاطب، فأمر الساعة بالنسبة إلى

---

[1] سنن البيهقي الكبرى: (٣٤٦/٣) (٦١٨٨) وأصله في البخاري.

[2] أخرجه الحاكم في المستدرك: (٥٨٢/٤) برقم: (٨٦٢٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المخاطبين كلمح البصر أو هو أقرب، أما الله -عز وجل- فهو يعلم ذلك بدقة، لا يخفى عليه شيء، أو تفسر (أو) بمعنى (بل) وعلى كل حال سبق الكلام على هذا المعنى، والله تعالى أعلم، **{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}**، وبعض أهل العلم يقول: إنه جيء بأو هنا **{أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}**: للإبهام على المخاطبين.

وقوله: **{أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ}**، معنى **{مَا يُمْسِكُهُنَّ}**: ليس معناه ما يقبضهن كما قد يتوهم البعض، وإنما المقصود **{مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ}**: أي ما يقيمهن بين السماء والأرض فتحلق هذا التحليق، وتصفّ أجنحتها تارة وتحركها تارة وهي غير معلقة بشيء، ولا معتمدة على شيء، ولها جرم، وتقوم على هذا الهواء اللطيف ولا تسقط، من الذي يقيمها؟ هو الله -تبارك وتعالى-، هذا معنى **{مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ}**، كما قال الله -عز وجل-: **{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا}** [سورة فاطر: (٤١)].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ * وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} [سورة النحل:٨٠-٨٣].

يذكر -تبارك وتعالى- تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً أي من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر؛ ولهذا قال: {تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا} أي: الغنم، {وَأَوْبَارِهَا} أي: الإبل، {وَأَشْعَارِهَا} أي: المعز -والضمير عائد على الأنعام- {أَثَاثاً} أي: تتخذون منه أثاثاً وهو المال، وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البُسُط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالاً وتجارة، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الأثاث المتاع، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخرساني والضحاك وقتادة، وقوله: {إِلَى حِينٍ} أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً}، يقول الحافظ -رحمه الله-: "**يذكر تعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع**"، السكن: هو ما يسكن إليه الإنسان ويطمئن به، وذلك يكون في البيوت حيث إن الناس إذا أووا إلى بيوتهم سكنت نفوسهم فيها، ولا يدخل عليهم غيرهم إلا باستئذان، والواحد منهم ربما وضع ثيابه، أو جلس أو اضطجع كما يحلو له، ولا يكون مستوفزاً يتوقع في كل لحظة أن أحداً من الناس يدخل عليه، وإنما يكون دخول الآخرين عليه بعد الاستئذان، فهو سيد في بيته، يجد نفسه في هذا البيت من غير تكلف، ودون أن يقلق بسبب ملاحظته للآخرين، كما هو الحال لو أنه كان في مكان عام فإنه قد لا يتهيأ له ألوان الراحة، وقوله: {وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ}، الأثاث هنا يمكن أن يحمل على هذه المعاني التي ذكرها السلف جميعاً، وقوله: {إِلَى حِينٍ} قال: **أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم**، وهذا التفسير هو من قبيل حمل المعنى على الأعم؛ لأن من أهل العلم من فسر قوله: {إِلَى حِينٍ} بيوم القيامة، ومنهم من فسره بالموت، ومنهم فسره

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالتلف، وما يحصل لها من البِلى، فهذه الملبوسات والبُسُط وما إلى ذلك تتلف بعد مدة، إلى غير ذلك من المعاني، وكبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فسر ذلك بالموت، {مَتَاعاً إِلَىَ حِينٍ} إلى الموت، وبعضهم يقول: إلى القيامة، وكلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أوسع من هذا كله، يقول: "**أي إلى أجل مسمىً ووقت معلوم**"، فالله -عز وجل- لم يحدّ حداً وإنما قال: {مَتَاعاً إِلَىَ حِينٍ} فهم يتمتعون بها إلى أن تبلى، فالإنسان يتمتع بهذه الأثاث إلى أن يموت، فهذا يصدق عليه أنه إلى حين؛ لأن التمتع بها في الحياة الدنيا فحسب، فهي متاع بالنسبة إلى مجموع الناس، فهو متاع إلى حين، بما هيأ الله -عز وجل- لهم من هذه الأنعام التي ينتفعون بها {إِلَىَ حِينٍ} إلى يوم القيامة، فهذا يصدق على ذلك جميعاً، فمن تمتع بها إلى أن بَلِيت فهو متاع إلى حين، ومن تمتع بها مدة حياته فهو متاع إلى حين، وبالنظر إلى مجموع الناس فهم يتمتعون بها في الدنيا جيلاً بعد جيل، ثم بعد ذلك تنقضي هذه الحياة وينتقلون إلى الدار الآخرة، التي ليس فيها من هذا اللباس والأثاث الذي يستخرجونه من الأنعام.

وقوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً} قال قتادة: يعني الشجر، {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً} أي: حصوناً ومعاقل، كما {جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} وهي الثياب من القطن والكتان والصوف، {وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ} كالدروع من الحديد المصفح والزَّرد وغير ذلك.

الزَّرد: حِلق الدروع، وحلق المِغْفر.

{كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ} أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} هكذا فسره الجمهور، وقرءوه بكسر اللام من {تُسْلِمُونَ} أي من الإسلام.

قوله: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً}، "**قال قتادة: يعني الشجر**"، هنا لم يحمله على أعم من هذا المعنى؛ لأن الله ذكر بعده الجبال فقال: {مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً}، لما خلق ظلالاً، فلو أنه اقتصر على الظلال {مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً} ولم يذكر الجبال بعده لفسر بأعم من ذلك، ولكن لما ذكر الجبال صار الظلال بالشجر، والجبال يوجد فيها ما يكنهم من المطر ومن حر الشمس، بما فيها من الغيران والكهوف والتجاويف وما إلى ذلك.

قوله: {مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} قال: "**وهي الثياب من القطن والكتان والصوف**"، قال: {وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ}، ولم يذكر البرد مع أن الناس بحاجة إلى ما يقيهم من البرد، قال بعض أهل العلم: إنه ذكر الأهم باعتبار أن أول من خوطب بالقرآن هم العرب، وكانت بلادهم حارة، واشتهرت بذلك، فهم بحاجة إلى ما يقيهم من حر الشمس، وبعضهم يقول: هذا من باب الاكتفاء، أي أنه ذكر أحد القبيلين ليدل به على الآخر، والتقدير "سرابيل تقيكم الحر والبرد"، ثم قال: {وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ} وهو ما يلبس في الحرب مما يتقي به الإنسان الطعن والضرب وما إلى ذلك، وقوله: {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} قال: هكذا فسره الجمهور، يعني ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، قال: وقرءوه بكسر اللام من {تُسلِمون} أي: من الإسلام، وفي قراءة عن عكرمة وهي مروية عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ولا تصح عنه: {لعلكم تَسلَمون} بفتح اللام يعني أن هذه السرابيل تقيهم بأسهم في الحرب لعلهم يَسلَمون أي من أجل أن يسلَموا، فتكون "لعل" بمعنى التعليل، يلبسونها من أجل السلام في الحرب، فلا يصيبهم السلاح الذي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يضربهم به عدوهم، {لَعَلَّكُمْ تَسْلَمُونَ} أي من أجل أن تسلَموا، والقراءة المتواترة هي القراءة المعتبرة {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} أي: أن الله هيأ لكم هذه النعم وأفاض عليكم هذه الألطاف من أجل أن تستعينوا بها على طاعة الله -عز وجل-، لا أن تستعينوا بها على معصيته، -والله أعلم-.

وقوله: {فَإِنْ تَوَلَّوْا} أي: بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} وقد أديته إليهم، {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} أي: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} قال ابن كثير -رحمه الله-: "**أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك، وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره**"، فقوله: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا}، أي: يعرفون نعمة الله مما ذكره وغير ما ذكر، ثم ينكرونها فيوجهون العبادة والشكر إلى غير المنعم، ويعبدون الأحجار التي هي في الأصل مسخرة لهم، ويعبدون الجن الذين هم دونهم في المرتبة، فالله أخرج إبليس وطرده من أجل أنه امتنع من السجود لآدم، ويعبدون بشراً مثلهم، أو يعبدون الملائكة الذين أمروا بالسجود لأبينا آدم -عليه الصلاة والسلام-، وهم خلق من خلق الله -عز وجل-، ولا تصلح لهم العبادة، فهذا المعنى بهذا الاعتبار الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو قول ظاهر، واختاره جمع من أهل العلم، منهم من المعاصرين الشيخ: محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ومن أهل العلم من فسره بالنبوة، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، فسره باعتبار ما قبله وما بعده، الله -تبارك وتعالى- قال قبله: {لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}، ثم قال بعده: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} [سورة النحل:٨٤]، الأقرب -والله تعالى أعلم- ما ذكره الحافظ ابن كثير، و"نعمة" مفرد مضاف إلى معرفة، هو لفظ الجلالة، والمفرد إذا أضيف إلى معرفة يُكسبه العموم كما هو معروف، والمعنى يعرفون نعم الله ثم ينكرونها، وهذا يشمل سائر النعم التي أنعم الله -عز وجل- بها عليهم، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} بعضهم يقول: الكافرون بالنعمة، وبعضهم يقول: الكافرون بالله، والواقع أنهم كافرون بالنعمة وكافرون بالله؛ لأن مَن وجّه شكر النعم إلى غير المنعم فقد كفر بهذه النعمة، ومن عبد غير الله -عز وجل- فهو كافر بالله، وهذا متحقق فيهم جميعاً، ووجه التعبير عن ذلك بالأكثر فلم يقل مثلاً: "وهم كافرون" مع أنهم كلهم كفار، قال بعض أهل العلم: عبر بالكثرة وأراد بذلك الجميع، وهذا أسلوب عربي معروف؛ لأن القليل وما خرج عن الكثير لا حكم له، ولا اعتبار، وإنما العبرة والنظر إلى الأكثر، وبعضهم يقول: إن ذلك باعتبار أن المراد هنا الكفر والجحود {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} أي: يجحدونها، ولم يكن كفر الجميع من هذا القبيل، فبعضهم كفْرُ جحودٍ، وبعضهم كفرُ إعراضٍ، فكفرهم متنوع، وبعضهم يقول بأن قوله: {وَأَكْثَرُهُمُ} أي: العقلاء منهم، فيخرج من ذلك غير المكلفين كالمجانين والأطفال، والقرآن كثيراً ما يعبر بالكثرة ويراد بها الكل، ولو قيل: إن قوله: {وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} المراد به أن منهم من يقر بالنعمة، ويضيف ذلك إلى الله -عز وجل-، ولكنه يعبد مع الله غيره، فهذا الكلام على كل حال له وجه، ولكن ما قبله أولى منه لما ذكرتُ -والله أعلم-، من أن من أقر بهذه النعم ثم وجّه العبادة إلى غير من خلق فإنه لا يكون شاكراً بل يكون كافراً؛ ولهذا كان الشرك أظلم الظلم؛ لأنه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يضع العبادة في غير من خلق ورزق وأنعم وتفضل، فالله هو الذي ينعم عليه ويتفضل عليه ويرزقه ثم يعبد حجراً أو شجراً، ويشكر غير الله، من لا يضره ولا ينفعه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- تعالى في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} [سورة النحل: (٨٤-٨٨)].

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: {ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ}: **أي في الاعتذار؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، كقوله:** {هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}[سورة المرسلات: (٣٥-٣٦)] **فلهذا قال:** {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}: **أي: الذين أشركوا** {الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ}: **أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة،** {وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ}: **أي: لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلائق، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه، فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إلها آخر وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب، قال الله تعالى:** {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا} [سورة الفرقان: (١٢-١٤)]، **وقال تعالى:** {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [سورة الكهف: (٥٣)] **وقال تعالى:** {لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} [سورة الأنبياء: (٤٠)].

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} المجيء بثم هنا التي تدل على الترتيب: الله -عز وجل- قال: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا} فيشهد عليهم وعلى إجابتهم وأعمالهم، {ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ} كأنه يدل -والله تعالى أعلم- على أن ما يُمْنَونَ به من المنع من الاعتذار يضاف إليه ما هو أشد عليهم من ذلك، وهو أن هؤلاء -نسأل الله العافية- يحصل لهم القنوط، وأنهم بعد أن يشهد عليهم الأنبياء بأعمالهم، يحصل لهم فوق ذلك المنع من الاعتذار، الأمر الذي يؤذن بقنوطهم ويأسهم من الخلاص والانفكاك من عذاب الله

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

-تبارك وتعالى-، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، لا يستعتبون؛ لأن العتاب حينما يقع إنما يكون -غالباً أو عادةً- لأجل العود إلى ما يرضي المعاتب، فهو يعاتب من قصر أو أخطأ من أجل أن يرجع إلى ما يرضيه فيرتفع عنه العتاب، أما إذا كان هذا العتاب متوجهاً على العزم وعلى السخط فإنه لا يجدي شيئاً، إنما يكون للتبكيت فيكون ذلك زيادة في الحسرة، فحينما تقول لمن لا تطلب منه الاعتذار لترضى عنه وإنما أنت عازم على عدم الغفران والمسامحة تقول له: ما الذي حملك على كذا؟ وما الذي حملك على كذا؟ فيكون فيه زيادة في التبكيت، وهذا لا شك أنه من زيادة العناء والشقاء على هذا المبتلى، والمقصود لا يستعتبون: أي لا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم -تبارك وتعالى-، فلا يذكرون الأعذار التي يستجلبون بها رضاه، فهم مهما قالوا ومهما تكلموا فإن الله -عز وجل- لا يرضى عنهم، فهم لا يُكلفون أن يرضوا ربهم، لا يستعتبون، وأصل هذه الكلمة من العتب وهو الموجِدة، وإذا رجع إلى ما يرضي المُعاتب، رجع إلى مسرته ومرضاته، يقال: أعتبه، ولهذا تقول: عاتبته فأعتبني، يعني صدر منه ما يرضي من عاتبه، والمستعتِب هو طالب العتبى، الذي يطلب الاعتذار، يقال له: مستعتِب، والسين والتاء كما هو معلوم للطلب، {وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، وأشار إلى الحديث: أنه يخرج عنق من النار ويقول: وكلت بكذا وكذا، هنا يشير إلى حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عند الترمذي[1]، وفيه: ((أنه يخرج عنق من النار له عينان تبصران ولسان ينطق فيقول: إني وكلت بثلاثة)) وذكر ((من دعا مع الله إلهاً آخر، والمشرك))، وذكر أيضاً: المصورين، وكل جبار عنيد.

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ}: أي: **الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا** {قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ}: أي: **قالت لهم الآلهة: كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كما قال تعالى:** {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [سورة الأحقاف: (٥-٦)] **وقال تعالى:** {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [سورة مريم: (٨١-٨٢)]، **وقال الخليل -عليه الصلاة والسلام-:** {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} [سورة العنكبوت: (٢٥)] **الآية، وقال تعالى:** {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ} [سورة القصص: (٦٤)] **الآية، والآيات في هذا كثيرة.**

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ}، هنا في هذا المقام يعترفون، ويقولون: {هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ} [سورة النحل: (٨٦)]، وفي بعض المواضع ينكرون الإشراك أصلاً، {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة

---

[1] سنن الترمذي: باب ما جاء في صفة النار: (٢٥٧٤) عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تخرج عنق من النار يوم القيامة لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين)). قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وصححه الألباني. انظر السلسلة الصحيحة (٢/٢٥) رقم (٥١٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأنعام: (٢٣)]، فهم في البداية ينكرون، فإذا قامت عليهم الحجج وشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجوارحهم عندئذ يقرون ويعترفون، وهنا قال الله -عز وجل- عن هؤلاء المعبودين إنهم ينكرون عبادة هؤلاء {فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ}، كما أخبر الله -عز وجل- عنهم في يوم القيامة أنهم يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، فهؤلاء الذين يُعبدون سواء كانوا من الملائكة حينما يقولون: {بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ} [سورة سبأ: (٤١)]، أو كانوا من غيرهم كعيسى -صلى الله عليه وسلم-، أو كانوا من الأصنام والأحجار والأشجار أو غير هذا، فهؤلاء يتبرءون منهم ومن عبادتهم، فيقولون هذا، فما المراد بذلك؟ أما من لا يرضى بعبادتهم فهذا ظاهر، لكن هم وجهوا العبادة إليه، وهو غير راضٍ بهذا، فكيف قال: {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} [سورة القصص: (٦٣)]، {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} [سورة يونس: (٢٨)] كيف أنكروا هذا؟ الجواب: أنهم في الواقع إنما عبدوا الشيطان الذي زين لهم هذا العمل، فهؤلاء الملائكة أو الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين عُبدوا، أو الصالحون لم يكونوا يرضون بهذه العبادة، ولم يدعوا الناس إليها، ولم يقروهم على ذلك، وإنما زين لهم الشيطان هذا العمل فاستجابوا له، فاستجابتهم هذه هي عبادة للشيطان، ولهذا قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [سورة مريم: (٤٤)] مع أن أباه ما كان يعبد الشيطان في الظاهر وإنما كان يعبد الأصنام {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} [سورة الأنعام: (٧٤)] فسماها عبادة للشيطان، فهذه الأحجار والأشجار التي لا تعقل هي لا تصلح للعبادة، وإنما الذي يزين عبادتها هو الشيطان، فيكون هؤلاء من حزب الشيطان وأتباعه وعابديه، ولما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- خالد بن الوليد إلى العزى فقطع السمرات ثم رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره، فأخبره النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لم يفعل شيئاً فرجع إليها فوجد امرأة سوداء ناشرة شعرها، تولول، فعلاها بالسيف، فلما رجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبره، قال: ((تلك العزى)) هي شيطان؛ ولهذا من المعروف عند العرب في أخبارهم أنهم ربما سمعوا من هذه المعبودات من الأحجار والأصنام من يجيبهم ويرد عليهم، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أيضاً عن أولئك الذين يعظمون القبور، ويعبدونها من دون الله -عز وجل-، ويعبدون من يسمونهم بالأولياء أنه ربما تلاعب بهم الشيطان، فإذا ركب الواحد منهم البحر وهاجت الريح وارتفع الموج وأوشكوا على الغرق والهلكة، ربما صاح الواحد منهم مستغيثاً بذلك المعبود من دون الله: يا فلان، يا جيلاني، يا بدوي، فتخرج لهم يد تنتشلهم في هذا المركب، ويكون هذا من عمل الشيطان، يلبّس عليهم، وذكروا أن الواحد منهم ربما كان يجلس على الطعام فيرى يد شيخه -وشيخه بعيد يمكن أن يكون في المغرب أو نحو هذا، وهذا في المشرق-، تأكل معه، فيظهر له أن ذلك على سبيل الكرامة، والواقع أن هذا هو الشيطان يتلاعب بهم، فحيله كثيرة ويأتي لكل أناس من الطريق الذي يميلون إليه، والله المستعان.

وقوله: {وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ} قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع، وكقوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم: (٣٨)]: أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا} [سورة السجدة: (١٢)] الآية، وقال: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [سورة طه: (١١١)]: أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}: أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراءً على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

{وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ}، السَّلم هنا: بمعنى الاستسلام، يعني بعد أن أنكر المعبودون عبادة العابدين وتبرءوا منهم عندئذ استسلم الجميع لله -عز وجل-.

{وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} معنى **{ضَلَّ عَنْهُم}**: أي ذهبت واضمحلت المعبودات التي كانوا يرجونها ويقولون: **{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}** [سورة الزمر: (٣)] **{هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ}** [سورة يونس: (١٨)]، إذا جاء في القيامة ذهب عنهم ذلك وتلاشى، فلا يشفعون لهم ولا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}** [سورة البقرة: (٤٨)]، فنفى عنهم كل أسباب الخلاص وعند ذلك يعرفون حقيقة ما هم عليه، ويذلون ويخضعون ويستسلمون، فمعنى **{ضَلَّ عَنْهُم}**: أي ذهب واضمحل، هذا أصل معنى كلمة الضلال في كلام العرب، ويأتي كثيراً بمعنى الذهاب عن الحق خاصة، **{غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ}** [سورة الفاتحة: (٧)]، ولكن يأتي في القرآن على أصل معناه في اللغة وهو الذهاب عن حقيقة الشيء، أو الذهاب عن الشيء والاضمحلال، كقول أبناء يعقوب ليعقوب -عليه الصلاة والسلام-: **{إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}** [سورة يوسف: (٩٥)]، ليس المقصود أنه ضال عن الهدى، وإنما قصدوا بذلك أنه ذاهب عن الحق في شأن يوسف -عليه الصلاة والسلام- **{إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}**؛ لأنهم لو اتهموه بأنه ضال عن الهدى والإيمان لكفروا بذلك، فهو نبي من أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، وإنما المقصود هنا الذهاب عن حقيقة الشيء، تقول: ضل الماء في اللبن بمعنى ذهب واضمحل، وهكذا.. وله شواهد كثيرة في كلام العرب.

ثم قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا} الآية: أي عذاباً على كفرهم، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق، كقوله تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [سورة الأنعام: (٢٦)]: أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضاً، {وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [سورة الأنعام: (٢٦)] وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: (٣٨)].

في قوله هنا: **{الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا}**، كفروا وصدوا، صدَّ: تأتي لازمة وتأتي متعدية، تقول: صد صدوداً، وتقول: صد عن الحق، وصد في نفسه، فصد في نفسه هذا معنى كونها لازمة، أي: أعرض، وصد زيداً، أو صد الناس، هذه متعدية إلى المفعول، يعني صد غيره، فكلمة صد تأتي للمعنيين: صد في نفسه وصد غيره، كقول الله -عز وجل- عن المنافقين: **{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}** [سورة المنافقون: (٢)] صدوا في أنفسهم وصدوا غيرهم عن اتباع الحق، وصدوا المؤمنين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والعمل بطاعته، فثبّطوهم عن ذلك، **{وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ}** [سورة النساء: (٧٢)] **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}** [سورة الأحزاب: (١٨)]، هنا في هذا الموضع هل تُحمل صد على اللازمة أو المتعدية أو على المعنيين؟ الأحسن -والله أعلم- أن تحمل هنا على أنها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

متعدية، {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ}، فلو قلنا بأنها لازمة {صَدُّواْ}: يعني في أنفسهم فإن ذلك يكون من قبيل التكرار، مع قوله: {كَفَرُواْ}، فإن كفرهم صدود؛ لأن الذي كفر لا شك أنه صد عن الحق في نفسه، والقاعدة: "أن التأسيس مقدم على التوكيد" أي: القول بأن الكلمة الثانية أو الجملة الثانية تُنشئ معنىً جديداً أولى من القول بأنها مؤكدة للمعنى الأول، فإذا قلنا بأن صد هنا لازمة فإن ذلك يكون تكراراً مع قوله: {كَفَرُواْ} فالقول بأن صد هنا متعدية أولى بناءً على القاعدة: "التأسيس مقدم على التوكيد"، فإذا كانت متعدية فسيكون المعنى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ} غيرهم، ويدل على هذا المعنى ما جاء بعده من قوله -تبارك وتعالى-: {زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ} فالزيادة في العذاب بأي اعتبار؟ باعتبار أنهم تحملوا أوزار الآخرين الذين صدوهم، وتسببوا في ضلالهم، {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [سورة العنكبوت: (١٣)]، فهذه قرينة تدل على أن المراد بصد هنا المتعدية، والله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه-: وقوله تعالى: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[سورة النحل:٨٩].

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-: {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ} يعني: أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً} [سورة النساء:٤١]، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((حسبك))، فقال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "فالتفتُ فإذا عيناه تذرفان"(١).

وقوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} قال ابن مسعود: قد بيّن لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء. فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم، {وَهُدىً} أي: للقلوب، {وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}، وقال الأوزاعي: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} أي: بالسنة، ووجه اقتران قوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ} مع قوله: {وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ} أن المراد -والله أعلم-: إن الذي فرض عليك تبليغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة، {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الأعراف:٦]، {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الحجر:٩٢-٩٣]، {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [سورة المائدة:١٠٩]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} [سورة القصص:٨٥] أي: إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه، ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك، هذا أحد الأقوال، وهو متجه حسن.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ}، معلوم أن "كل" أقوى صيغ العموم، {تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} ، فأخذ بعضهم من هذا أن القرآن قد اشتمل على جميع العلوم، وأطالوا الكلام في هذا، وتكلفوا في

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قولة المقرئ للقارئ حسبك، برقم (٤٧٦٣)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، برقم (٨٠٠)، واللفظ للبخاري.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك تكلفات كثيرة قالوا: إنه يشتمل على علم الجبر، والهندسة، والمساحة والأثر، والخط، والفلك، والرياضيات، والطب، والزراعة، والنجارة، والحدادة، إلى غير ذلك من العلوم الكثيرة التي عددوها، وفي كتاب الإكليل للسيوطي، جملة كبيرة من هذا، وهذا تكلف، والقرآن لم ينزل ليكون كتاباً أو موسوعة علمية في هذه الفنون، وإنما هو كتاب هداية، فهو تبيان لكل شيء مما يحتاج الناس إليه في سيرهم إلى الله، حيث إنه عرفهم بالمعبود وعرفهم بالطريق الموصل إليه، وبالدار التي يصلون إليها، فالأشياء التي ذكرها الله -عز وجل- في القرآن ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة، فما يذكره من القصص والأخبار وما إلى ذلك يرجع إلى هذا، وبهذا الاعتبار يكون قوله: {تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ} من قبيل العموم الاستعمالي، كما يسميه الشاطبي -رحمه الله-، فلا يفهم منه العموم الذي يذكره الأصوليون، وهو ما يعبرون عنه باللفظ العام المستغرق، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا} [سورة الأحقاف:٢٥] يعني مما جاءت وسيقت هذه الريح لتدميره، فلم تدمر الجبال ولا السماوات ولا الأرض ولا مساكن هؤلاء، ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ}[سورة الأحقاف:٢٥]، وكقوله -تبارك وتعالى-: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣] يعني ملكة سبأ، ولم تؤتَ ملك سليمان، وقول الله -عز وجل- عن مكة: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة القصص:٥٧] مع أنه يوجد ثمرات في الدنيا لا تجبى إليه؛ ولأنه من العموم الاستعمالي لم يعترض أحد على مثل هذه الآيات فيقول: إن الثمار الفلانية لا تجبى إليه، وهكذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه))[٢] وقد جاء زمن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- بعد زمن الحجاج، والتكلف في تحميل القرآن ما لا يحتمل، والقول بأنه يشتمل على أربعمائة علم أو أكثر ليس صحيحاً، والقرآن وإن كان فيه بعض الإشارات إلى بعض الجوانب مثل الفلك أو نحو ذلك، وما يذكره الله -عز وجل- من دلائل قدرته ونحو هذا، فليس معنى ذلك أن القرآن جاء لشرح هذه العلوم، يقولون: يشتمل على علم الحدادة، ويحتجون بقوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ} [سورة الأنبياء:٨٠]، وعلم النجارة يقولون: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا} [سورة هود:٣٧]، وهكذا سائر العلوم في علم الهندسة مثلاً أو {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} [سورة الكهف:١٧] ويبدءون يتكلمون عن الزوايا وما أشبه هذا، وهذا غير صحيح.

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة النحل:٩٠]، **يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كقوله تعالى:** {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}[سورة النحل:١٢٦]، **وقوله:** {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}[سورة الشورى:٤٠]، **وقال:** {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} [سورة المائدة:٤٥] **إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل.**

---

٢ - رواه البخاري، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، برقم (٦٦٥٧)، أن أنساً -رضي الله عنه- قال: "اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم -صلى الله عليه وسلم".

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: {وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} أي: يأمر بصلة الأرحام، كما قال: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً}[سورة الإسراء:٢٦]، وقوله: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} فالفواحش: المحرمات، والمنكرات: ما ظهر منها من فاعلها؛ ولهذا قال في الموضع الآخر: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [سورة الأعراف:٣٣] وأما البغي فهو العدوان على الناس، وقد جاء في الحديث: ((ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم))[٣].

وقوله: {يَعِظُكُمْ}: أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، وقال الشعبي عن شُتَير بن شَكَل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} الآية، رواه ابن جرير.

تكلم العلماء على هذه الآية: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى} وتقدم الأثر عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أنها أجمع آية في كتاب الله -تبارك وتعالى-، وفيها الأمر بالأخلاق الجامعة، والنهي عن الرذائل، وهي التي أمر عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أن تقرأ على المنابر في خطبة الجمعة، في آخر الخطبة، فقد كان قبل ذلك يشتمون علياً -رضي الله تعالى عنه- في الشام، فلما جاء عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- نهى عن هذا، وأمر بأن تقرأ هذه الآية: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء}؛ والعدل: هو الإنصاف وأن يعطى كل ذي حق حقه وما يستحقه، والإحسان: هو الفضل، يعني الزيادة، فالعدل هو الواجب، والإحسان هو ما ندب الله -عز وجل- إليه من العفو أو الإفضال على من أساء.

وفسر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- الفحشاء بالمحرمات، والمنكر بما ظهر منها من فاعلها، ولو قيل بأن الفحشاء هي كل ذنب عظيم، فإن هذه اللفظة تدل على هذا المعنى، فالشيء العظيم يقال له: فاحش، فيقال: هذا مال فاحش، ويقال: كلام فاحش، فهو الذنب العظيم، والمنكر: فهذا من عطف العام على الخاص، المنكر أعم، فقد يكون كل ما أنكره الشرع أو عرفت العقول نكارته؛ لأن المنكر عند أهل السنة والجماعة، والقبح يعرف بالشرع، وكذلك أيضاً العقول لها مدخل في هذا، خلافاً للمتكلمين من الأشعرية ونحوهم، الذين يقولون بأن التحسين والتقبيح شرعيان، وأنه لا مدخل للعقل في ذلك، يقولون: العقل لا يدرك حسن الأشياء ولا قبح الأشياء، ويقولون: لو أن الشرع أمر بالزنا والكذب والفواحش لكانت حسنة، وهذا من أغرب الأشياء، والشارع لا يمكن أن يأمر بهذا، وأهل السنة يقولون بأن المنكر ما دل الشرع على نكارته وقبحه، وما أنكرته العقول؛ لأن من الأشياء ما له حسن أو قبح ذاتي، يعرفه أصحاب العقول، فيقال مثلاً في الظلم والكذب ونحو هذا: هذه تدرك العقول قبحها، ولذلك حتى الكفار يعرفون قبح هذه الأشياء، ولو لم يرد الشرع بذلك، والشرع لا يمكن أن يأمر بمثل هذه الأشياء، فالأشياء التي نهى عنها الشرع هي قبيحة، ولكن قد تدرك العقول قبحها

---

٣ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه و سلم-، برقم (٢٥١١)، من حديث أبي بكرة -رضي الله عنه-، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البغي، برقم (٤٢١١)، وأحمد في المسند برقم (٢٠٣٩٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح، وصححه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٥٥)، والألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩١٨)، وفي تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٤٩٣٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد يخفى عليها ذلك، فالشاهد أن الله -عز وجل- قال: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ} وهي الذنوب العظام، وكذلك أيضاً ينهى عن كل منكر، وهذا يشمل الفواحش وغير الفواحش، فيكون هذا من قبيل عطف العام على الخاص، وهو كثير في القرآن.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، يعظكم: الغالب في كلام أهل العلم أنهم يعبرون عن معنى الوعظ فيقولون: هو الأمر أو النهي المقرون بالترغيب والترهيب، ونجد في كثير من المواضع أن الله -عز وجل- يأمر وينهى دون أن يكون معه ترغيب ولا ترهيب، ويسميه وعظاً، والجواب عن ذلك بأن يقال: إن القرآن يُنظر إليه باعتبار أنه وحدة متكاملة، قد ذكر الله -عز وجل- فيه الترغيب والترهيب والتخويف، وإذا أمر الله -عز وجل- فإنه قد أخبر أن أمره يجب أن يمتثل، وإلا فإنه يتوعد ويعاقب ويعذب من عصاه.

وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قال: بينما رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون، فكشر إلى رسول الله، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألا تجلس؟)) فقال: بلى، قال: فجلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مستقبله، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر، فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة!، فقال: ((وما رأيتني فعلت؟)) قال: رأيتك شخصَ بصرُك إلى السماء، ثم وضعته حيث وضعته على يمينك، فتحرفت إليه وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: ((وفطنت لذلك؟)) فقال عثمان: نعم، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس)) قال: رسول الله؟ قال: ((نعم))، قال: فما قال لك؟ قال: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} الآية، قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً -صلى الله عليه وسلم-[٤]، إسناد جيد متصل حسن قد بيّن فيه السماع المتصل.

هذا الحديث في إسناده شهر بن حوشب، وهو مضعف، وفيه آخر أيضاً يقال له: عبد الحميد بن بهرام.

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا

---

٤ - رواه أحمد في المسند (٨٧/٥)، برقم (٢٩١٩)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، والطبراني في المعجم الكبير (٣٩/٩)، كلاهما من طريق عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، كلاهما فيهما كلام، بعضهم وثق عبد الحميد بن بهرام وبعضهم ضعفه، وبعض العلماء قبل روايته عن شهر بن حوشب؛ لأنه ممن لازمه وحفظ حديثه، والذين ردوا حديثه لأنه صدوق يروي عن ضعيف وهو شهر بن حوشب، انظر: سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي (٣٣٤/٧)، وضعف العلماء شهر بن حوشب وللمزيد من الفائدة وبيان كلام العلماء عليه ينظر: كتاب سير أعلام النبلاء (٣٧٤/٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَأُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[سورة النحل:٩١-٩٢].

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} ولا تعارض بين هذا وبين قوله: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ} [سورة البقرة:٢٢٤] الآية، وبين قوله تعالى: {ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} [سورة المائدة:٨٩] أي: لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله -عليه الصلاة السلام- فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: ((إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها))[٥] وفي رواية: ((وكفرت عن يميني))[٦] لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا، وهي قوله: {وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}؛ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حثٍّ أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: {وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} يعني الحِلْف، حِلْفَ الجاهلية، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا حِلْف في الإسلام، وأيما حلْف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة))[٧] وكذا رواه مسلم، ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلْف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وأما ما ورد في الصحيحين عن أنس -رضي الله عنه- أنه قال: حالف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار في دورنا[٨]، فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

---

٥ - رواه البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب الكفارة قبل الحنث وبعده، برقم (٦٣٤٢)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، برقم (١٦٤٩)، من حديث أبي قلابة -رضي الله عنه-، واللفظ له.

٦ - رواه البخاري، كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، برقم (٦٣٤٠)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب نذر من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتي الذي هو خير ويكفر عن يمينه، برقم (١٦٤٩)، من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه.

٧ - رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب مؤاخاة النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أصحابه -رضي الله تعالى عنهم-، برقم (٢٥٣٠).

٨ - روى الإمام البخاري -رحمه الله- في مؤاخاة النبي -صلى الله عليه وسلم- بين المهاجرين والأنصار -رضي الله عنهم- من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: "لما قدموا المدينة آخى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع قال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالا فأقسم مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي أطلقْها فإذا انقضت عدتها فتزوجْها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقِطٍ وسمن، ثم تابع الغُدو، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((مَهْيَم؟))، قال: تزوجت، قال: ((كم سقت إليها؟))، قال: نواة من ذهب، أو وزن نواة من ذهب"، كتاب فضائل الصحابة، باب إخاء النبي -صلى الله عليه و سلم- بين المهاجرين والأنصار، برقم (٣٥٦٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حمل جماعة من أهل العلم قوله تبارك وتعالى: {بِعَهْدِ اللّهِ} على عموم العهود، العهد مع الله -عز وجل-، والعهد مع المخلوقين، فإذا عاهد الإنسان ربه فيجب عليه أن يفي {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ} [سورة التوبة:٧٥]، فالشاهد: أن الله -تبارك وتعالى- لمّا أخلفوا هذا قال: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [سورة التوبة:٧٧]، وهكذا النذر هو عهد مع الله يجب الوفاء به، والعهود مع الناس داخلة في هذا {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}، والأيمان جمع يمين وهي الحَلِف، وعرفنا لماذا قيل لها: يمين، وأن الأصل أنه كان من عادتهم أن الواحد منهم إذا حلف أخذ بيمين صاحبه توكيداً للقول بالفعل، ثم نُسي ذلك، فصارت تطلق اليمين على كل حَلِف، وقوله: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} يقول: لا تعارض بين هذا وبين قوله: {وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ} [سورة البقرة:٢٢٤]؛ لأن المعنى في هذه الآية: لا تتركوا فعل الخير والصلة والبر والإحسان بحجة أنكم حلفتم أن لا تفعلوه، فلا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، فإذا رأى الإنسان أنه حلف على شيء ثم وجد غيره خيراً منه فإنه يكفر عن يمينه كما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} فهذه الأدلة التي أوردها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تدل على أن الإنسان ينقض اليمين ويكفر عنها، ثم بيّن أن المراد بقوله: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ} أي: التي في العهود، وبعض أهل العلم يقول: المقصود به الأيمان المؤكدة، وهذا بعيد، ومنهم من يقول: {وَلاَ تَنقُضُواْ الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} المقصود به ليس الذي في العهود وإنما الأيمان التي ينعقد عليها القلب، {لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ} [سورة المائدة:٨٩]، فهذه اليمين لا يجوز للإنسان أن ينقضها، فإذا رأى أن غيرها خيرٌ منها فإنه يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، أما ما يجري على ألسنة الناس ولا ينعقد عليه القلب فإن هذا ليس له حكم اليمين، فلا بأس بأن الإنسان يفعل خلاف مقتضاه، والمقصود بـــ {وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} أي: لا تنقضوها غير مبالين بها، لأن لها حرمة يجب على الإنسان أن يقف عندها ويمتنع مما حلف عليه أن يتركه، أو يفعل ما حلف أنه يفعله، أو يكفر عن يمينه، ولعل هذا المعنى أقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً} منهم من فسره بالشهيد -أي شهيداً-، ومنهم من فسره بالرقيب، ومنهم من فسره بالحافظ، يرقبكم ويحفظ عليكم أعمالكم وأيمانكم، ويشهد عليكم بذلك، ويراعي أحوالكم من الوفاء والنقض، فهذه المعاني التي ذكرها السلف -رضي الله عنهم- متقاربة، والله تعالى أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[سورة النحل: (٩١-٩٢)].

وقوله: {إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا} قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا، وقوله: {أَنكَاثًا} يحتمل أن يكون اسم مصدر، {نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا}: أي أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان أي: لا تكونوا أنكاثاً جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ}: أي: خديعة ومكراً {أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}: أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم؛ ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك؛ لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى.

قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنُهوا عن ذلك. وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه. وقوله: {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ} قال سعيد بن جبير: يعني بالكثرة، رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد {وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا} جاءت روايات كثيرة في أن المراد بذلك امرأة معينة كانت بمكة، كانت تغزل الصوف، ثم بعد ذلك تنقضه، وهذه الروايات على كثرتها لا يصح منها شيء؛ ولذلك تحمل الآية كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على أنها من قبيل ضرب المثل، سواء كان هناك امرأة تفعل هذا بمكة، أو لم يكن، فالمقصود أنه ضربُ مثل لتصوير معنىً بأمر محسوس، وإنما تذكر الأمثال لهذا الغرض، تقريب المعاني بالأمور المحسوسات من أجل أن تُفهم ويُعرف المعنى، فكما تقول مثلاً: مثل هذا في نقضه ما بذل فيه جهده كالذي يغزل وينقض ما غزل، وتقول: مثل هذا في بعثرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جهده وتضييعه كمثل الذي يكتب على الماء، ونحو هذا مما يقال، والتأنيث فيه {كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا} سببه واضح، وهو أن التي تغزل عادة هي المرأة، وإنما ضرب المثل بنقض الغزل وذلك من شأن النساء، {كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا}، ثم قال هنا: **وقوله**: {أَنكَاثًا} **يحتمل أن يكون اسم مصدر** {أَنكَاثًا}: أي أنقاضاً، وبعضهم يقول: هو مصدر، وبعضهم يقول: بدل، والحاصل أن لفظة الأنكاث بعض أهل اللغة يقول: هي جمع نِكث، والمراد به: النقض، فالغزل يحكم ثم بعد ذلك ينقض، فهكذا الذي يعقد العهد والميثاق، ثم ينقضه بعد أن أبرمه، كالتي تغزل ثم بعد ذلك تنقض ما غزلت، فالأنكاث جمع نِكث وهو ما ينكث فتله، وبعضهم كما سبق يقول: إنه جمع نَكِث: يعني الناكث، {أَنكَاثًا}: يعني ناكثين، ولهذا قال بعده: {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ}: **أي خديعة ومكراً**، وأصل لفظة {دَخَلاً} كل ما ليس له أساس صحيح فإنه يعبر عنه بذلك، يقال: هذا الأمر فيه دَخَلٌ، بمعنى أنه أمر ليس على الجادة، ليس بصحيح، ليس بمستقيم، فما هو الدخَل الذي يكون بالنسبة للأيمان؟ هو أن تُتخذ خديعة ومكراً، {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ} **قال: خديعة ومكراً**، فهذا التعبير فيما يختص بالأيمان، لكن تقول: هذا المذهب فيه دخل بمعنى أنه ليس بمستقيم، فيه انحراف، وهنا {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ} الأقرب -والله تعالى أعلم-: أن المعنى أن هؤلاء يعقدون الأيمان والمواثيق والعهود ثم بعد ذلك ينقضونها إذا رأوا أن مصلحتهم تقتضي ذلك من جهة أنهم وجدوا من هو أقوى من الذين عاهدوهم، وأعطوهم الأيمان والمواثيق والعهود، فيتركون هؤلاء ويحالفون هؤلاء، وهكذا يتنقلون ويتلونون ويتقلبون بحسب ما يرونه أوفق لهم فيما يتوهمون أن مصلحتهم تقتضيه، فينقضون العهد بسبب ذلك، يعني قد يعاهدون هؤلاء ثم بعد ذلك تتغير الأحوال فتضعف هذه الطائفة أو القبيلة التي عاهدوها أو حالفوها، ثم بعد ذلك يرون أنهم يقوون عليها فينقضون، أو وجدوا من هم أقوى منهم فيحالفونهم، أو وجدوا فرصة مواتية بأن وقعت حرب بين هؤلاء وهؤلاء، فحالفوا الآخرين، أو نحو هذا مما قد يفعله أهل الجاهلية ومن لم يراعِ للعهود والمواثيق حرمةً، {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}، لفظة {أَرْبَى}: أصل هذه المادة يرجع إلى معنى الزيادة، {أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}: يعني أكثر وأقوى، فيتركون أولئك الذين عاهدوهم ويتحالفون مع غيرهم، {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ}، هنا نقل القولين: يبلوكم بالكثرة {أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ}، {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ} فأعاد الضمير إلى أقرب مذكور ثم نقل قول ابن جرير بأن المقصود الوفاء بالعهد، وعلى كل حال بين القولين ارتباط وملازمة، وذلك أنهم إنما ينقضون حينما يجدون مثل هذه المسوغات من الكثرة والقوة وما إلى ذلك، فيبتليهم الله -عز وجل- بهذا لينظر في عملهم، هل يوفون بالعهد أو ينقضونه لطمعٍ قريب يحصِّلونه أو يتوهمونه؟، {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ}، والتكاليف كما هو معروف عند الأصوليين مبناها على الابتلاء والامتثال، على الراجح من أقوالهم أنها تجمع بين الأمرين، وإن اختلفوا فيها فمنهم من يقول: للابتلاء، ومنهم من يقول: للامتثال، ويترتب على هذا مسألة عملية وهي إذا قلنا: إنها للابتلاء، فمعنى ذلك أنه يسوغ التكليف بما لا يطاق، وإذا قيل: إنها للامتثال فإنه لا يكلف الناس بما لا يطيقون، فبعضهم يقول: هي للامتثال، وبعضهم يقول: هي للابتلاء، كما قال في المراقي:

للامتثال كَلَّف الرقيبُ *** فموجبٌ تمكناً مصيبُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أو الابتلاء، فذكر القولين، فيترتب إذا قيل: إنها للامتثال: أنه لا يكون إلا بالإطاقة، وعلى كل حال الراجح أنها للابتلاء والامتثال، فالله -عز وجل- يبتلي الناس بالتكاليف، ولا يكلفهم إلا من أجل الامتثال، ولا يوجد في الشريعة تكليف بما لا يطاق، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ} [سورة البقرة: (٢٨٤)] الراجح أن هذه الآية لم تنسخ، وإنما هي مبينة بقوله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [سورة التغابن: (١٦)]، وكذا قول الله -تبارك وتعالى-: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [سورة آل عمران: (١٠٢)] مبين بـــ {اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}، فما يبديه الإنسان وما يخفيه مما تحت طوقه فإن الله -عز وجل- يحاسبه عليه من الإيمان والكفر والتوكل على غير الله -عز وجل- والتعلق، والمحبة التي لا تصلح إلا لله إذا وجهت للمخلوق، وهكذا من الرياء والسمعة والمقاصد السيئة، والله أعلم.

{وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل: (٩٣-٩٦)].

يقول الله تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ} أيها الناس {أُمَّةً وَاحِدَةً} كقوله تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [سورة يونس: (٩٩)]: أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [سورة هود: (١١٨-١١٩)]، وهكذا قال ههنا: {وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء} ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها، على الفتيل والنقير والقطمير، ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي: خديعة ومكراً؛ لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: {وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

هنا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}: هناك نهى عن اتخاذ الأيمان هذا الاتخاذ { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ}، وتوعدهم على ذلك، ونهاهم عن هذا تحت أي مبرر كان، بمعنى: لا يسوغ لكم التلاعب بالعهود والمواثيق والأيمان والنقض بتسويغ ذلك بكون هؤلاء أقوى من هؤلاء وأكثر ونحو هذا، إنما يلتزم الإنسان العهد ويفي به، وهنا {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، نهى عنه مبيناً أثره، وهناك ينهاهم عنه مهما كانت مبرراته، ولهذا قال: {إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ} ففيه تهديد مبطن، وهنا {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} ما هو الأثر؟ الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: **مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها**، هو لا يقصد الآن تفسير الآية بكاملها، وإنما يقصد فقط {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا} أن هذا يمثل به لمن حاد وزل وانحرف عن الطريق، {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، تقول مثلاً: لا تتبع خطوات الشيطان فتزل قدم بعد ثبوتها، لا تقرأ الشُّبه ولا تصغِ إلى أهل الشبه وأهل البدع والأهواء فتزل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قدم بعد ثبوتها، من عرَّض نفسه للفتنة أولاً لم ينج منها آخراً، {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، فهذا مثل لمن حصل له انحراف وميل عن الطريق الصحيح، لكن معنى الآية: {وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، الحافظ ابن كثير فسر ذلك بأنه يتسبب في فتن غير المسلمين حينما يرون المسلمين يتلونون، وينقضون العهود والمواثيق، بحسب ما يرونه مصالح عاجلة وقريبة، فهم مَصْلحيُّون لا يقفون عند مبدأ ولا يرعون للعهد حرمة، وإنما ينكثون العهود والمواثيق متى ما رأوا الفرصة مواتية، فيصدهم ذلك عن دين الله -عز وجل-، ولا يقبلون الإسلام؛ لأنهم يرون الغدر والخيانة، هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}: يعني أن ذلك يكون صداً لغير المسلمين، لكن هذا لا يخلو من إشكال -والله أعلم-؛ لأن هؤلاء الكفار لم تثبت أقدامهم أصلاً على الصراط حتى تزل، هم بعيدون عن الصراط المستقيم، ولهذا قال بعضهم: {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}: أي أن ذلك الناكث هو المراد بقوله: {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، فيكون قد حاد عن الحق وخرج عنه بنقضه للعهد وصار بهذا منحرفاً ظالماً مستحقاً للعقوبة، وهذا أقرب من المعنى الأول، وبعضهم يفسر هذا بأيمان البيعة التي تعطى للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فخصه بنوع من الأيمان والعهود، فتلك في عموم العهود والمواثيق والأيمان، وهذه في نوع خاص منها وهو ما يعطى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- من أيمان البيعة، فإذا نقض فإن ذلك يكون فتاً في عضد المسلمين، وضعفاً في الإسلام، وسبباً للتضعضع والتراجع وغلبة العدو، إذا نكثتم عهودكم وبيعتكم ولم تفوا بذلك فإن ذلك يكون سبباً لضعف المسلمين وتراجعهم، وطمع عدوهم أو غلبته عليهم، وهذا لا دليل عليه، -أي التخصيص بهذا المعنى-، ولهذا الأقرب -والله تعالى أعلم-: {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا} أنه قدم الناكث، فهو الذي يكون قد انحرف وخرج عن الحق بنقضه للعهود والمواثيق، {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ}، الحافظ ابن كثير ربما يحتج بهذا الجزء من الآية بأنه قرينة على أن المقصود {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا} قدمُ غير المسلمين، فتكونون قد صددتم عن سبيل الله، لكن على المعنى الذي ذكرته آنفاً وهو أنه تزل قدم الناكث {وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} فلا شك أن نقض العهود يتسبب عنه صد الناس عن الحق، وليس فقط نقض العهود بل كل التصرفات التي تسيء إلى الإسلام والمسلمين تكون صداً عن سبيل الله، ولهذا المؤمن يدعو ربه أن لا يكون فتنة للذين آمنوا، كما أن الله -عز وجل- علّمنا: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الممتحنة: (٥)]، وكما سبق أن الفتنة مصدر، تأتي بمعنى الفاعل وتأتي للمفعول، {لَا تَجْعَلْنَا} بمعنى الفاعل، لا تجعلنا فاتنين بأن تسلطهم علينا، كما قال طائفة من السلف -رضي الله عنهم-: أنْ تُسلطهم علينا فيغلبونا ويقهرونا فيقال: لو كان هؤلاء على الحق لما كانوا بهذه المثابة، فهذا معنى، ويدخل فيه {لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً} بأن الناس لا يلتزمون شرع الله -عز وجل-، ويصدر عنهم ما ينفر الناس عن الدخول في الإسلام، كما هو واقع الأمة اليوم، فيكون ذلك صداً عن سبيل الله وفتنة للناس عن الدخول فيه، وبمعنى المفعول {لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا} لا تسلطهم علينا فيقهرونا ويغلبونا، فنُفتن في ديننا، ونُصَدَّ عن سبيل الله، لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فهذه المعاني داخلة فيه، والله تعالى أعلم، لكن هنا {وَتَذُوقُواْ السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ} بتصرفهم السيئ هذا، ونقضهم للعهود والمواثيق، لا شك أن هذا يتسبب عنه الصد عن سبيل الله -تبارك وتعالى-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم قال تعالى: {وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً}: أي: لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها؛ فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ}: أي يفرغ وينقضي، فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر مُتناه {وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ}: أي وثوابه لكم في الجنة باقٍ لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول {وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} قسم من الرب تعالى مؤكد باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي: ويتجاوز عن سيئها.

أحسن -كما تعلمون-: صيغة تفضيل، {وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، فهذا المعنى الذي مشى عليه ابن كثير هو الذي اختاره ابن جرير أيضاً، بمعنى يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون، فيتجاوز عن السيئ، ويجازيهم بأحسنها لا بأسوئها، هذا معنىً، وبعض أهل العلم يقول: يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون أي: يجعل لهم الأجر والثواب على مقدار ما يكون فاضلاً من أعمالهم الصالحة، فالأعمال الصالحة تتفاوت، ويتفاوت الناس في إحسانهم فيها، من حضور القلب، وشدة الإخلاص والإخبات أثناء العمل، وما أشبه هذا مما يحصل فيه تفاضل بسبب المتعلق من جهة الزمان والمكان، فيكون الجزاء على الأرفع منها، فيرفع الضعيف وما كان جزاؤه قليلاً تكون المحاسبة على الأعلى، فمثلا: أنت عندك بضاعة منها ما هو جيد ومنها ما هو رديء، وكلها بضاعة، عندك مواد مصنوعة، عندك منسوجات منها ما هو جيد ومنها ما هو ركيك أو رديء، فتكون المحاسبة لك إذا أردنا أن نعطيك حقك تماماً أن يعطى كل نوع منها ما يستحقه، فعلى هذا المعنى هنا؟، لا، بل يعامل الجميع معاملة الأحسن والأفضل منها، من كرم الله -عز وجل- وفضله على عباده، يجبر لهم الضعف، ويرفع لهم الأجور، بحيث إنها تكافئ الأفضل من أعمالهم، نجزيهم {بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، وهذا معنىً ذكره بعض أهل العلم، وهو معنىً حسن، وسبب الاختلاف، أن "أحسن" أفعل تفضيل إذا استعملناها في بابها الذي وضعت له، وهو أن شيئين اشتركا في صفة فزاد أحدهما على الآخر، فحينئذ الأعمال السيئة -كما مشى عليه ابن كثير وابن جرير رحمهما الله- غير داخلة في المفاضلة؛ لأنه لا يفاضل بين الأعمال السيئة والحسنة، ما يقال: الطاعة أفضل من المعصية،

ألم تر أنّ السيف ينقصُ قدرُه *** إذا قيل: إن السيف أمضى من العصا

وإنما يكون في شيئين اشتركا في صفة، تقول: زيد أعلم من عمرو، الفرائض أفضل من النوافل، وكل ذلك فاضل، فهنا تكون هذه الأعمال قد اشتركت بالحسن فزاد بعضها على الآخر، فبعضهم قال: السيئ غير مشترك في الحسن هنا، ما الذي يشترك في الحسن؟ قالوا: المباح، والسيئ مذموم، إذاً يجزيهم بأحسن: يعني بالطاعات دون المباحات، أعمالُهم فيها المعصية وفيها المباح وفيها العمل المشروع الذي أمر الله به ورسوله -صلى الله عليه وسلم- أمْر إيجاب أو ندب، هذا المشروع، هذا القسم الثالث، فالتي اشتركت في الحسن غير مذمومة شرعاً هي المباحات والأمور الأخرى المشروعة، فيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون، يعني بأحسن أعمالهم، وأما المباح فلا يحاسب الإنسان عليه، هذا المعنى الثالث، هي ثلاثة معانٍ على كل حال، والله تعالى أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل(١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل(٩٧)].

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً -وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله- بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت.

وقد روي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وجماعة إنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب، وعن علي بن أبي طالب - رضي الله تعالى عنه- أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه))[1]، ورواه مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [سورة النحل(٩٧)] لو قال الله -تبارك وتعالى-: من عمل صالحاً وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة لفُهم المعنى؛ لأن "مَن" تدخل على الذكور والإناث، لكن المجيء بقوله: {مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} هو لمزيد التأكيد.

وفي هذه الآية الكريمة شروط قبول العمل الثلاثة: فالعمل الصالح هو العمل الذي يكون خالصاً لله -عز وجل-، ويكون صواباً فيتابع فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا بد من الإيمان فلا يكون العمل مقبولاً إلا إذا كان صاحبه مؤمناً، فإن كان مشركاً كافراً فإن عمله لا يقبل، والله -عز وجل- يقول عن الكفار: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا} [سورة الفرقان(٢٣)].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [سورة النحل(٩٧)]، قد حمل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- الحياة الطيبة على معنى واسع فقال: "**والحياة الطيبة تشمل وجوه**

---

[1] - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة (٢ / ٧٣٠)، برقم (١٠٥٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الراحة من أي جهة كانت" وقد فسر بعض أهل العلم الحياة الطيبة بالقناعة، وفسرها بعضهم بالسعادة، وفسرها بعضهم بأنها الرزق الحلال الطيب، والظاهر أن هذه المعاني مترابطة؛ لأن القول بأن الحياة الطيبة هي الرزق الحلال متقارب مع القول بأنها القناعة؛ لأنه لا يرضى بالحلال الطيب إلا من رزق القناعة، فإن الذي يوقع الناس في الحرام هو الشره والطمع وقلة القناعة، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [سورة التغابن(١٦)] فربط الفلاح وعلقه بالوقاية والتخلص من شح النفوس، فتبين من هذا أن السعادة إنما توجد مع الطاعة، وهي نتيجة لها، ولا يمكن أن توجد السعادة إلا مع القناعة، وقد يعطى الإنسان القليل ولكنه في قلق دائم، وينظر إلى من فوقه في الدنيا، وقد أرشد النبي -صلى الله عليه وسلم- في الأمور الدنيوية أن ينظر إلى من دونه، بخلاف أمور الآخرة فيستحب للإنسان أن ينظر إلى من فوقه، وقول ابن كثير بأن الحياة الطيبة تشمل ذلك جميعاً هو الذي رجحه الشيخ الأمين الشنقيطي.

فالحياة الطيبة هي جنة الدنيا وهي ما يجده أهل الطاعة والعمل الصالح والإيمان من الانشراح واللذة والسرور بمناجاة الله –عز وجل– وعبادته والقرب منه، مع ما يعتريهم من الأسقام والأمراض وضعف الحال، وذلك لأن نفوسهم اطمأنت بطاعة ربهم -جل جلاله-، فأنساهم ذلك هموم الدنيا وآلامها ومصاعبها، وما يلقونه فيها من الأكدار، فصار لهم الانشراح والحبور والراحة القلبية، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه وهو أطيب الناس عيشاً.

وقد وصف الإمام ابن القيم شيخه ابن تيمية بأنه أطيب الناس عيشاً، مع ما كان يحصل له من إيذاء، وكان يقول –رحمه الله-: "إن جنتي وبستاني في صدري، سجني خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة".

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- في الجواب الكافي عن الحياة الطيبة: "ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هماً واحداً في مرضات الله، ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره -التي كانت متقسمة بكل وادٍ منها شعبة- على الله، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى، وحبه والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث"[٢].

وقال -رحمه الله تعالى– في مفتاح دار السعادة: "هذا خبر أصدق الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين، بل هو حق اليقين، ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء، والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع

---

[٢] - الجواب الكافي (١ / ١٢٩- ١٣٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأوطان والأموال والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلها والخروج منها رأساً، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق وهو متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم حتى إن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته حتى يُلقي قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها، ثم يتقدم إلى الموت فرحاً مسروراً، ويقول الآخر مع فقره: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً، وقال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب"[٣].

قوله: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} [سورة النحل (٩٨- ١٠٠)].

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطة في أول التفسير، ولله الحمد والمنة، والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر؛ ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

وقوله: {إنه لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} **قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون: كقوله:** {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}.

{إِنَّمَا سُلْطَانه عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} **قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله،** {وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} **أي: أشركوا في عبادة الله تعالى.**

قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}، أي: إذا أردت قراءة القرآن، وهذه الآية كقوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [سورة الطلاق (٢)] أي: إذا قاربن بلوغ الأجل؛ لأن المطلقة إذا بلغت الأجل في العدة تكون قد بانت من زوجها، ولا يستطيع أن يمسكها.

وقال بعض أهل العلم في قوله –تبارك وتعالى-: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}: إن الاستعاذة تكون بعد القراءة، وهذا القول على غرابته موجه بتوجيه معقول، وهو أن الاستعاذة بعد القراءة؛ لئلا يحصل للقارئ العجب بالعمل الصالح، فتفسد عليه عبادته.

والراجح -والله أعلم– المعنى الأول وهو أن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم هي بين يدي القراءة، وذلك نوع طهارة وتهيؤ، كما أن الإنسان يتهيأ للقراءة بالطهارة فكذلك يتهيأ لها بنوع آخر وهو التخلص من الشيطان الرجيم، من أجل ألا يشوش عليه فكره، ويفرق قلبه، كما يحصل لبعض الناس من الوساوس والأفكار الفاسدة أثناء القراءة، ويلبس عليه أمره.

---

[٣] - مفتاح دار السعادة (١/٣٥-٣٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد بينت السنة كيفية الاستعاذة، فإذا قال القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أو قال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أو زاد: مِن هَمْزه ونفخه ونفثه، فكل ذلك حسن.

ومعنى الشيطان: من شطن أي بعُد، فهو بعيد عن رحمة الله وعن الخير، يقال: شطنت البئر، يعني: بعد قعرها، أو من شاط يشيط، فكل عاتٍ متمرد فهو شيطان، ومنه قول الشاعر:

أيام يدعونني الشيطان من غزل *** وكن يهوينني إذ كنت شيطاناً

وقول الآخر يمدح سليمان -عليه الصلاة والسلام-:

أيّما شاطنٍ عصاه عكاه *** ثم يُلقَى في القيد والأكبال

ورجيم فعيل بمعنى مفعول أي: مرجوم، فهو مُبعَد عن الخير وعن رحمة الله -عز وجل-، وقال بعضهم: رجيم أي: مرجوم بالسب والشتم واللعن، وكل هذا صحيح، وبعضهم يقول: رجيم: فعيل بمعنى فاعل، أي: أنه راجم، يرجم الناس بالوساوس، والخواطر السيئة، لكن المشهور هو الأول.

قوله: { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل:٩٩- ١٠٠]

قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وهذا كثير في القرآن، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير، وعزاه الواحدي لعامة المفسرين.

وقد أثبت الله –تبارك وتعالى– للشيطان سلطاناً فقال: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ}، ونفى عنه السلطان في سورة إبراهيم فقال: { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [إبراهيم: ٢٢]، وقد بين العلامة الشنقيطي -في دفع إيهام الاضطراب- الجمعَ بين الآيتين، وللعلامة ابن القيم –رحمه الله– كلام على هذه المسألة.

وقد قال بعض أهل العلم: إن المراد بسلطان الشيطان هو الحجة، ويكون المعنى: إنما زينت لكم ودعوتكم بلا حجة فاستجبتم لي.

وقال بعضهم: إن المقصود أنه لم يكن له تسلط عليهم بالقدرة والقهر والإجبار، وإنما دعاهم فاستجابوا له، وبين المعنيين ملازمة؛ لأن سلطان الحجة يؤثر ويورث الاستجابة والانقياد فهو يقهر بهذه الحجة؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء (٣٣)]، قيل: حجة، وقيل: تسلطاً على القاتل.

وقيل: إن المقصود أن الشيطان لم يكن له سلطان عليهم ابتداءً، ولكن هم الذين سلطوه على أنفسهم باتباع خطواته، والاستجابة لوساوسه وخواطره السيئة التي يلقيها في قلوبهم، فسلموا قيادهم له فصرعهم وغلبهم وأوقعهم فيما لا يرضي الله -تبارك وتعالى-، ولهذا قال: {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ}.

(مسألة): قوله –تبارك وتعالى-: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا} [سورة الحجرات (١٤)] هذا الخطاب موجه لطائفة مخصوصة وهم الأعراب، الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم، وإنما أسلموا إسلاماً ظاهراً فقط، فنهاهم الله –تبارك وتعالى- عن هذه الدعوى، والمقصود بالإيمان هنا الانقياد والاستجابة والتصديق والإقرار القلبي.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يدل قوله – تبارك وتعالى –: {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [سورة النجم (٣٢)] على عدم جواز تزكية النفس، فيجوز للإنسان أن يقول: أنا مؤمن ويجزم بذلك، لكن لا يقول ذلك باعتبار أنه من أهل الجنة وأنه مقطوع له بدخول الجنة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله تعالى- في بدائع التفسير، في تفسير قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}[سورة النحل:٩٨]: "ومعنى استعذ بالله: امتنع به واعتصم به والجأ إليه، ومصدره العوذ والعياذ والمعاذ، وغالب استعماله في المستعاذ به، ومنه قوله -صلى الله عليه وآله وسلم-: ((لقد عذت بمعاذ))[(١)]، وأصل اللفظة: من اللجأ إلى الشيء والاقتراب منه، ومن كلام العرب أطيب اللحم عوذه: أي الذي قد عاذ بالعظم واتصل به، وناقة عائذ: يعوذ بها ولدها، وجمعها عوذ كحُمر، ومنه في حديث الحديبية معهم العوذ المطافيل، والمطافيل: جمع مطفل وهي الناقة التي معها فصيلها.

قالت طائفة -منهم صاحب جامع الأصول-: استعار ذلك للنساء أي معهم النساء وأطفالهم، ولا حاجة إلى ذلك، بل اللفظ على حقيقته، أي قد خرجوا إليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التي معها أولادها، فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن وفي ذلك وجوه:

منها: أن القرآن شفاء لما في الصدور، يُذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمره فيها الشيطان فأمر أن يطرد مادة الداء، ويخلي منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً فيتمكن منه ويؤثر فيه كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهوى *** فصادف قلباً خالياً فتمكَّنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

ومنها: أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله -عز وجل- منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

---

١ - رواه ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب متعة الطلاق، برقم (٢٠٣٧)، وأحمد في المسند (٤٦٠/٢٥)، برقم (١٦٠٦١)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط البخاري، وقال الألباني: منكر بذكر أسامة أو أنس، صحيح بلفظ: فأمر أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين، صحيح ابن ماجه برقم (١٦٥٧)، والحديث أخرجه البخاري بلفظ عن عائشة -رضي الله عنها-: أن ابنة الجون لما أدخلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: ((لقد عذت بعظيم الحقي بأهلك))، كتاب الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق، برقم (٤٩٥٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى، وهو لعَمْر الله ملحظ جيد إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة، وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف وهو محصل للأمرين.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن، وتستمع لقراءته كما في حديث أسيد بن حضير -رضي الله تعالى عنه- لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح، فقال -عليه الصلاة والسلام-: ((تلك الملائكة))[٢]، والشيطان ضد الملك وعدوه، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن، فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز و جل منه.

ومنها: أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، والله تعالى أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته"[٣] ا.هـ.

هذا فيه ضعف، لكن في الحديث الآخر الذي هو: ((ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يقرأ القرآن يتغنى به))[٤]، وفسر في بعض الوجوه بأن المراد به أنه من الأذن أي الاستماع.

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "ومنها: أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي {إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} [سورة الحج:٥٢]، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته، قال الشاعر في عثمان:

تمنى كتابَ الله أوّلَ ليلِهِ *** وآخره لاقى حِمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل -عليهم السلام- فكيف بغيرهم؟؛ ولهذا يُغلّط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا، وربما جمعهما له فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه.

ومنها: أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه، فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن شيطاناً تفلّت عليّ البارحة فأراد أن يقطع

---

٢ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، برقم (٤٧٣٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، برقم (٧٩٦).

٣ - انظر: بدائع التفسير، للإمام ابن القيم (٢/١٢١-١٢٣)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (١/٩١-٩٣).

٤ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سورة سبأ:٢٣]، ولم يقل ماذا خلق ربكم، برقم (٧٠٤٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، برقم (٧٩٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليّ صلاتي))[٥] الحديث، وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر، وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه -رضي الله تعالى عنه-: أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك؟، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطِّوَل؟[٦]، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد))[٧]، فالشيطان بالمرصاد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد -رحمه الله-: ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدتهم[٨]، رواه ابن أبي حاتم في تفسيره.

فهو بالرصد ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ثم اندفع في سيره.

ومنها: أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتى به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ وإن كان وحده لما ذكرنا من الحِكم وغيرها، فهذه بعض فوائد الاستعاذة.

وقد قال أحمد في رواية حنبل: لا يقرأ في صلاة ولا غير صلاة إلا استعاذ؛ لقوله عز وجل: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}.

وقال في رواية ابن مشيش: كلما قرأ يستعيذ، وقال عبدالله بن أحمد: سمعت أبي إذا قرأ استعاذ يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم.

---

٥ - رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن عفريتا من الجن تفلت عليّ البارحة -أو كلمة نحوها-؛ ليقطع عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي}[سورة ص:٣٥]، قال رَوْح: فردَّه خاسئا))، أبواب المساجد، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، برقم (٤٤٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، برقم (٥٤١).

٦ - هو الحبل الذي يربط به الفرس،، يدور في مساحة معينة لا يتجاوزها.

٧ - رواه النسائي، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، برقم (٣١٣٤)، وأحمد في المسند (٣١٥/٢٥)، برقم (١٥٩٥٨)، وقال محققوه: إسناده قوي، وابن حبان في صحيحه (٤٥٣/١٠)، برقم (٤٥٩٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٩٧٩)، وفي صحيح الجامع برقم (١٦٥٢).

٨ - أي: مثل عددهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي المسند والترمذي من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا قام إلى الصلاة استفتح ثم يقول: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه، ونفثه))[٩].

وقال ابن المنذر: جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقول قبل القراءة: ((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم))[١٠]، واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهو رواية عن أحمد بظاهر الآية وحديث ابن المنذر.

وعن أحمد من رواية عبدالله: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم))، لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين، ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جلس وكشف عن وجهه وقال: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم))[١١].

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل؛ لأن قوله: {فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}، ظاهره أنه يستعيذ بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقوله في الآية الأخرى: {فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}، يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف "إن"؛ لأنه سبحانه هكذا ذكر"[١٢] ا.هـ.

حديث أبي داود في قصة الإفك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جلس وكشف عن وجهه وقال: ((أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم))، قال: رواه أبو داود في الصلاة باب من لم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، وقال: هذا حديث منكر.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "ولما كان الغضب مركب الشيطان فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة بالإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد

---

٩ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك، برقم (٧٧٥)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما يقول عند افتتاح الصلاة، برقم(٢٤٢)، وأحمد في المسند (٥١/١٨)، برقم (١١٤٧٣)، وقال محققوه: إسناده ضعيف، وصححه الألباني في تحقيقه مشكاة المصابيح برقم (١٢١٧)، وفي صحيح أبي داود برقم (٧٤٨).

١٠ - قال الشيخ الألباني رحمه الله: " لم أقف على هذا في شيء من كتب السنة المعروفة إلا ما في " مراسيل أبي داود " عن الحسن أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يتعوذ فذكره، وهذا مع ضعفه -لأنه من مراسيل الحسن البصري- فليس فيه أن هذه الصيغة كانت في الصلاة، فالأفضل أن يستعيذ بما في حديث جبير بن مطعم وأن يزيد أحيانا : "السميع العليم" كما ورد في بعض الأحاديث مثل حديث أبي سعيد الخدري عند أبي داود والترمذي وغيرهما بسند حسن وهما مخرجان في" الإرواء " (٣٤٢)" انظر: تمام المنة في التعليق على فقه السنة (١٧٦).

١١ - رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من لم يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم،، وقال: هذا حديث منكر، برقم (٧٨٥)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (١٣٩).

١٢ - انظر: بدائع التفسير، للإمام ابن القيم (١٢٣/٢-١٢٥)، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (٩٣/١-٩٥). .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإيمان والتوكل فأبطل سلطان الشيطان فـ {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [سورة النحل:٩٩].

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة، والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة، والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده"[١٣].

والسلطان يأتي بمعنى الحجة، ويأتي بمعنى القدرة، وقول الله -عز وجل-: {وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا} [سورة الإسراء:٣٣]، قال بعضهم المراد به: حجة، ويمكن أن يجمع بين هذا وهذا فيقال: له حجة وسبيل يتسلط به على القاتل، فيكون مخيراً بين ثلاثة أمور، فعبر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بعبارة دقيقة، ذكر الحجة وذكر القدرة؛ لأن الحجة هذه هي السبيل التي يتوصل بها إلى الاقتدار.

وقال -رحمه الله-: "وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، قال في سورة الحجر: {قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [سورة الحجر:٣٩-٤٢].

وقال في سورة النحل: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} [سورة النحل:٩٩-١٠٠]، فتضمن ذلك أمرين:

أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص.

والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه[١٤]، إلى آخره.

وقال -رحمه الله-: "فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطاناً، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكياً عنه مقرراً له: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}[سورة إبراهيم:٢٢]"[١٥].

ما يذكره الله -تبارك وتعالى- حكاية عن قول قائل فإما أن يأتي قبله أو معه أو بعده ما يدل على بطلانه، أو يسكت عنه، ويدل ذلك على صحته غالباً، فحينما يقول الله -عز وجل- مثلاً: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ} [سورة الكهف:٢٢]، فقوله: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} دل على أن هذا القول غير صحيح، ولما قال: {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ}، ما أبطله ولا ذكر ما يدل على بطلانه، ففهم منه أن هذا هو القول الصحيح، وقد يذكر أمرين فيكون أحدهما حقاً والآخر باطلاً، فيبطل الباطل ويسكت عن الحق، {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ} [سورة الأعراف:٢٨] وسكت عن {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا}، فهذا حق، لكن قوله: {وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا} هذا باطل، وقوله: {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة

---

١٣ - إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، لابن القيم (٩٨/١).

١٤ - إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان، لابن القيم (٩٨/١).

١٥ - انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، للإمام ابن القيم (١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البقرة:١١١]، وقوله: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ}[سورة المائدة:١٨]، وهذا غالباً، فقوله تعالى عن الذين غلبوا على أمرهم: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}[سورة الكهف:٢١]، وما عقب عليها، هل معنى هذا جواز اتخاذ المساجد على القبور؟، وهذا يحتج به القبوريون، ويجاب عنه بجوابين قطعاً لاحتجاجهم، الأول: أن يقال: إن القواعد أغلبية، وليست كلية، بمعنى الكلية التي تحيط بجميع الجزئيات، والأمر الثاني: أن ذلك لو كان كما قلتم، وأنه جائز في شرع من قبلنا، فقد دلت هذه الشريعة على تحريمه، والنصوص صريحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا، فغاية ما يقال في شرع من قبلنا: إنه شرع لنا ما لم ينسخ، مع أنه كان محرماً في الشرائع السابقة، وفي الحديث: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[١٦]، ولو كان يجوز في شرعهم لما استحقوا اللعن، كيف يلعنون على شيء يجوز في شريعتهم؟.

وقال -رحمه الله-: في قوله: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ} [سورة سبأ:٢٠-٢١]

قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد، بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان[١٧].

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً ألبته، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود: أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلَّط عليه ذلك العدو نفسه"[١٨].

وقال -رحمه الله- تعالى: "ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [سورة ص:٨٢-٨٣]، فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله -عز وجل- وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله، وإنما يكون له سلطانٌ على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته، فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم.

فإن قيل: فقد أثبت له السلطان على أوليائه في هذا الموضع فكيف ينفيه ....؟"[١٩]

---

١٦ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، برقم (١٢٦٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد، برقم (٥٢٩)، من حديث عائشة -رضي الله عنها.

١٧ - جمع -رحمه الله- بين الحجة والقدرة،، فالحجة هي السبيل إلى الانقياد والإذعان،، فإن الناس ينقادون لها، ويخضعون كما يخضعون لصاحب القدرة.

١٨ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، للإمام ابن القيم (١٧-١٨).

١٩ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم (٩٩/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال المصنف في تفسيره -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [سورة النحل:١٠١-١٠٢].

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ}: أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقال مجاهد: {بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ} أي: رفعناها وأثبتنا غيرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}: قوله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} جملة اعتراضية، والقاعدة في مثل هذه الجمل الاعتراضية أنها تأتي في كل مقام بحسبه؛ للاحتراز تارة من فهمٍ قد يُساء، أو غير ذلك من المعاني، فقوله: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}، كأنه جواب على سؤال سائل، {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ}، {قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}، فالله قال: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ} يعني: أن الذي أبْدَلَه وأتَى بغيره منزل من الله -عز وجل-، وأن الله عالم بذلك، فهذا التبديل حق وليس بباطل، هو من عند الله، فالآية المبدلة من عند الله، والآية البديلة هي من عند الله، والله -عز وجل- إنما يفعل ذلك عن علم، والجميع منزل، ليس فيه شيء مختلق، فهذه الجملة الاعتراضية أفادت هذا المعنى، {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ}، {قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}، فقال: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}، هذا التبديل إنما هو صادر عن علمه -تبارك وتعالى-، وكله من تنزيله، فهو حق.

وقال قتادة: هو كقوله تعالى: {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا} [سورة البقرة:١٠٦] الآية.

يعني إذا علم أنه منزل من عند الله، وأنه حق وبعلمه، فيجب التسليم له والانقياد، كما يسلّم الإنسان للآية الأولى حينما نزلت، فإذا بدل ذلك ونسخه فيجب التسليم والانقياد.

فقال تعالى مجيباً لهم: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ}: أي جبريل.....

قوله: {رُوحُ الْقُدُسِ} يعني الروح المقدسة، من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، وكذلك: بيت المقدس، وتقول مثلاً: بلاد الطهر.

{مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} أي: بالصدق والعدل، {لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا} فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتخبت له قلوبهم، {وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} أي: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [سورة النحل:١٠٣].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على القاعدة السابقة أن الله -عز وجل- إذا ذكر قول القائلين، أعقبه بما يبطله أو يبين بطلانه، فقال: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}، فقال: {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}، ردَّ مقالتهم.

ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يردّ جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} أي: القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أُرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مُسكة من العقل.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلعام.

القين يعني الصانع.

وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}.

هذه الرواية ضعيفة في سبب النزول، والأقوال في اسم هذا البشر الذي قالوا: إنه يعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- كثيرة جداً، وعامة ذلك لم يصح فيه شيء، عامتها من المراسيل ولا تصح، والمبهمات غالب ما يشتغل به المشتغلون منها مما لا طائل تحته وأنه لو كان فيه فائدة لذكره الله -عز وجل- وبيّنه ولكنه تركه؛ لأنه لا حاجة إليه، {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [سورة القصص:٢٠]، فيقولون من هذا الرجل؟، {وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ} [سورة النساء:١٠٠]، جاء عن عكرمة: أنه بقي أربع عشرة سنة يبحث عن اسم هذا المبهم، وألف فيه السهيلي وغيره مصنفات خاصة في المبهمات، تفسير مبهمات القرآن، والإعلام، والأقوال كثيرة جداً بعضهم يقول: اسمه جبر، وهو غلام للفاكه بن المغيرة، كان نصرانياً فأسلم، وبعضهم يقول: يعيش وهو عبد لبني الحضرمي، وبعضهم يقول: هو غلام لبني عامر بن لؤي، وبعضهم يقول: هما غلامان، اسم الأول: يسار، والآخر: جبر، وهما نصرانيان لبني الحضرمي، وهذه الرواية هي التي صحت في هذا -أنهما غلامان-، وبعضهم يقول: هو غلام نصراني في مكة يقال له: أبو ميسرة، وبعضهم يقول: عدّاس، وأصحاب السير يذكرون عدّاساً الذي كان في وادي نخلة لما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الطائف، وأبعد هذه الأقوال أنه سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه-، وسلمان -رضي الله تعالى عنه- كان في المدينة، ولم يلقه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا في المدينة، وإنما كانوا يقولون ذلك لرجل كان في مكة، فالشاهد أن معرفة اسم هذا المبهم لا فائدة تحتها، وهو من الاشتغال بفضول العلم، وليس بمُلَح العلم، فضلاً عن أن يكون من أصله وصلبه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله تعالى: {لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ} يعني: أن لغته أعجمية، {وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}، {لِسَانٌ عَرَبِيٌّ} أي: كلام عربي، والعرب تعبر باللسان أحياناً وتريد به الكلام، {وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} أي: كلام عربي مبين، فسماه لساناً.

{إِنّ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [سورة النحل:١٠٤-١٠٥].

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله -صلى الله عليه وسلم- ليس بمفترٍ ولا كذاب؛ لأنه إنما يفتري الكذبَ على الله وعلى رسوله -صلى الله عليه وسلم- شرارُ الخلق، {الَّذين لا يُؤْمِنُونَ بِآيات اللَّه} من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- كان أصدق الناس وأبرّهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد -صلى الله عليه وسلم-؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان لِيَدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله -عز وجل-[٢٠].

{مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنّهُمُ اسْتَحَبّواْ الْحَيَاةَ الدّنْيَا عَلَى الآخرة وَأَنّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لاَ جَرَمَ أَنّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الْخَاسِرونَ} [سورة النحل:١٠٦-١٠٩].

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه؛ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم، {لا جَرَمَ} أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته {أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} أي: الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وأما قوله: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

---

٢٠ - رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برقم (٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، برقم (١٧٧٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}، قال: "**فهذا استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى**"، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**كفر بلسانه**"، أي باعتبار سبب نزول الآية، جاء عن عمار -رضي الله تعالى عنه-، أنهم آذوه وضربوه حتى تكلم ببعض ما يرضيهم من سب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((إن عادوا فعد))[٢١]، فهذه رخصة، وهي مسألة يترتب عليها أحكام عملية، كالحكم بالكفر، ثم هل الرخصة فقط في مسائل التكفير هي فقط فيما يتعلق بالنطق باللسان وأن ذلك لا يسوغ بحال فيما يتعلق بالفعل؟ من أهل العلم من يخصه باللسان، وعبارة ابن كثير -رحمه الله- لا تدل على أنه يتبنى هذا الرأي، لكنه عبر بهذا باعتبار سبب النزول، ولربما أيضاً احتج بعضهم بحديث الذباب، وهو معروف مشهور، لما قيل للرجلين: قرّبا شيئاً، فأحدهما أبى فقتل، والآخر لم يجد شيئاً فقالوا: قرب ولو ذباباً، فقرب ذباباً، فمات فدخل النار، لو صح هذا الحديث لصح الاحتجاج بهذا على أن الفعل غير القول، لكن الحديث ضعيف، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله -عز وجل- يقول: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}، ما قال: فإنه يرخص له أن ينطق أو يقول الباطل، وإنما أطلقه، لهذا فالأقرب أن الإكراه عذر في القول والفعل، الإكراه بنوعيه، الإكراه الملجئ الذي ليس للإنسان فيه اختيار، كما لو جيء به وبالقوة وُضع أمام صنم وأُسْجِد له، أو طيف به على صنم أو نحو هذا، فهذا يعذر به، وكذلك الإكراه الذي يكون من قبيل الإكراه حكماً وهو فيما لو أنه هُدد بضرب معتبر، أو قتل، أو حبس، أو نحو ذلك فهذا يعتبر إكراهاً، فإذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان فهو معذور، العذر يكون بالإكراه بالقول ويكون بالإكراه بالفعل، وكون هذه وردت في قصة عمار وأنه تكلم بالباطل، إلا أن القاعدة المعروفة لا تهمل وهي "أن العبرة بعموم اللفظ والمعنى لا بخصوص السبب"، فاللفظ عام، وهذه من المسائل التي يحتاج إلى معرفتها في هذا الباب الذي كثر الخوض فيه والتبس على كثير من الناس؛ لما يترتب عليه من الأحكام الكبيرة العظيمة، ولهذا ليس من السهل أن يتكلم فيه كل أحد، صغار طلبة العلم، ومن لا يطلب العلم أصلاً، فبمجرد أن يستقيم أو يتوب من بعض الذنوب يبدأ يتكلم في هذه الأحكام العظيمة مباشرة، نسأل الله العافية.

وقد روى العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر -رضي الله تعالى عنهما- حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأنزل الله هذه الآية.

رواية العوفي عن ابن عباس لا تصح، لكن لفظ الرواية: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، هذا من قبيل غير الصريح، نزلت في فلان، لكن آخر الرواية: فأنزل الله هذه الآية، هذا صريح، فأولها غير صريح وآخرها صريح، ولهذا نقول في الكلام على هذه المسألة عادة: إن الغالب أن قولهم: نزلت هذه الآية في كذا أنه من قبيل التفسير، نقول: الغالب، ليس هو دائماً؛ لأنهم قد يقصدون بهذه العبارة سبب النزول.

---

٢١ - رواه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٦٦٧٣)، والحاكم في المستدرك (٣٣٦٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك، وروى ابن جرير عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كيف تجد قلبك؟))، قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن عادوا فعد)).

وهذه الرواية ضعفها بعض أهل العلم.

ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله ما تُركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير، قال: ((كيف تجد قلبك؟)) قال: مطمئناً بالإيمان، فقال: ((إن عادوا فعد))، وفي ذلك أنزل الله {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}؛ ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال -رضي الله عنه- يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحدٌ، أحدٌ، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، -رضي الله عنه وأرضاه-، وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة -رضي الله تعالى عنه وعنهم- أنه أسرته الروم، فجاءوا به إلى ملكهم فقال له: تنصَّر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد -صلى الله عليه وسلم- طرفة عين ما فعلت، فقال: إذاً أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقِدر، وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت.

المقصود بقوله: بقرة من نحاس: ليس المراد أنه تمثال مثلاً من نحاس على هيئة بقرة، لا، وإنما لعله قدر كبيرة واسعة مأخوذ من التبقر بمعنى التوسع، التبقر في الدار، التبقر في البناء، التبقر في الأرض، التبقر في الزرع، التبقر في المال، بمعنى التوسع في القدر، جاء ببقرة مثلاً من نحاس، أي: قدر من نحاس كبيرة واسعة، ليلقيه فيها.

وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البَكَرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه، فقال: إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله، وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟، فقال: أما إنه قد حلَّ لي، ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟، قال: نعم، فقبل رأسه فأطلقه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه -رضي الله تعالى عنهما-[٢٢].

٢٢ - انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٨٩/٤)، وضعفها الألباني -رحمه الله- في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل(١٥٧/٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}. [سورة النحل: (١١٠-١١١)].

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر تعالى: أنه من بعدها -أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة- لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ}: أي تحاجُّ {عَن نَّفْسِهَا} ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، {وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ}: أي من خير وشر {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}: أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزاد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ}، صح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنها نزلت فيمن كان بمكة من المسلمين، وأكرهوا على الخروج مع المشركين في يوم بدر، فمن حصل له ذلك بعدها من الهجرة والجهاد والتوبة والصبر فالله -عز وجل- يغفر له ذنبه، وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، من بعد ماذا؟ الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي من بعد تلك الفعلة والإجابة إلى الفتنة، يعني من بعد الذنب، {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} وهذا تحتمله الآية، وبعضهم يقول: المراد من بعد المهاجرة والجهاد والصبر والتوبة، فإن الله يغفر له ذلك، وبعضهم يقول: هذا يرجع إلى الجميع، {مِن بَعْدِهَا}: أي من بعد ما عملوا ذلك وتابوا منه وهاجروا وغيَّروا الحال فإن الله غفور رحيم، ولا شك أن هذه المغفرة التي ذكرتْ إنما كانت بعد أن تابوا ورجعوا وهاجروا وجاهدوا مع المسلمين، {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} فهذه المهاجرة ونحو ذلك مُرتَّبة على الفتنة التي حصلت لهم، فالذين كانوا في مكة من المستضعفين أُخرج من أخرج منهم في غزوة بدر وقتل بعضهم، وفي مثل هؤلاء يقول الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيرًا}[سورة النساء: (٩٧)]، واستثنى من هؤلاء صنفاً وهم المستضعفون الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، تبينه الآية الأخرى وهم الصبيان

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والنساء، فهؤلاء لا يستطيعون الهجرة، فهم معذورون، لكن الرجال الأقوياء وهم في الغالب شباب فمثل هؤلاء توعدهم الله بما توعدهم به حينما خرجوا مع المشركين، والله المستعان.

{وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}.

[سورة النحل: (١١٣)].

هذا مثلٌ أريد به أهل مكة؛ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، ويتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمنا لا يخاف، كما قال تعالى: {وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا} [سورة القصص: (٥٧)]، **وهكذا قال ههنا:** {يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا}: أي هنيئاً سهلاً {مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ}: أي: **جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- إليهم، كما قال تعالى:** {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [سورة إبراهيم: (٢٨-٢٩)] **ولهذا بدلهم الله بحاليْهم الأوليْن خلافهما، فقال:** {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}: **أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لمّا استعصوا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبعٍ كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه.**

الله المستعان، ولربما خلط بالقراد، الوبر والدم والقراد.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً}، الذي عليه الجمهور من المفسرين، واختيار الحافظ ابن كثير وقبله ابن جرير، وممن رجحه من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- أن المراد مكة، واحتجوا لهذا بقرائن من هذه الآية وما بعدها، وهو أن الله -عز وجل- قال: {قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ}، {كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً} قالوا: القرآن دل على هذا، {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا}، و{يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ} قالوا: {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ}، والقرآن يفسر بالقرآن، و{فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ}، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} والنعمة هنا مفرد مضاف إلى المعرفة {نِعْمَةَ اللّهِ} مضاف إلى الاسم الظاهر لفظ الجلالة، وهذا للعموم، {بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا}: أي بدلوا نعم الله كفراً، {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ} [سورة المائدة: (٧)]: يعني اذكروا نعم الله عليكم، هذا المعنى، فقالوا هنا: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} وذلك حينما دعا عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- فأصابهم ما أصابهم من شدة الجوع حتى إن الواحد منهم كان يرى ما بينه وبين السماء مثل الدخان من شدة الجوع، حتى أكلوا العِلْهز والميتات، وكذلك من القرائن ما قال الله بعدها: {وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ}: يعني لو قيل: الآية على العموم في أي وقت في أي قرية كانت آمنة مطمئنة، فكيف قال: {وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ}؟ فدل ذلك على أنها قرية معينة وهي مكة، وهذا القول هذه الشواهد مجتمعة تدل عليه، ولماذا ضرب الله هذا المثل بقرية معينة؟ من أجل أن يتعظ به الناس في كل زمان ومكان، فليس بين الله -عز وجل- وبين أحد من المخلوقين نسب، ولا سبب إلا العبادة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتقوى والإيمان والتوحيد، فكل من فعل هذا الفعل فهو مستحق لهذه العقوبة، أن تُبدل نعمة الأمن إلى الخوف، ونعمة الرخاء إلى الشدة.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} هنا عبر بأمرين بالإذاقة وباللباس، فأما الإذاقة لـــ{لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} -والذي يذاق هو الطعام من مشروب ومأكول- فعبر بها فيما يتعلق بالجوع والخوف، -والله تعالى أعلم- لشدة تمكنه منهم حتى بلغ منهم مبلغاً فصار ذلك بمنزلة الذوق الذي يجتمع فيه الإدراكان، {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}، وأما اللباس، فقد سماه لباساً، {لِبَاسَ الْجُوعِ} لما يظهر عليهم من آثاره، {لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ} من الشحوب والهزال وما إلى ذلك مما لا يخفى، حينما تقع الشدة في قوم فإن ما يعانيه الإنسان لا شك أنه يظهر على وجهه، فالسرور يظهر على وجه الإنسان، والنعمة والرغد تظهر على وجهه، وشدة الحال تظهر على وجهه، والمرض يظهر والخوف يظهر، كل ذلك يبين عنه الوجه، فهو مرآة تعكس حال الإنسان، ولهذا قال الله -عز وجل-: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ} [سورة البقرة: (٢٧٣)]، والراجح في تفسيرها كما قال ابن جرير وغيره: {تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ}: أي بما يظهر على وجوههم، وما يظهر عليهم من شدة الحال، من شحوب الوجه ورثاثة الثياب وما إلى ذلك، فالفقير يعرف من حاله ولباسه، وهكذا، حينما تأتي بناس فقراء وناس أغنياء ألا يظهر هذا على تقاسيم وجوههم، وأولادهم؟ يعرف الفقير من الغني من الوجه غالباً.

وقوله: {وَالْخَوْفِ} وذلك أنهم بُدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- حين هاجروا إلى المدينة، من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} [سورة آل عمران: (١٦٤)] الآية. وقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا} [سورة الطلاق: (١٠-١١)]، وقوله: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ* فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [سورة البقرة: (١٥٠-١٥١)] وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهري -رحمهم الله.

مع أنه حكي عن الزهري، جاء عن الزهري أن المقصود بذلك المدينة، وهذا في غاية الغرابة، بل هو قول مردود -أن المراد بذلك المدينة-؛ لأنه متى بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟، متى وقع لهم مثل هذا، {فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ}؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

{فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [سورة النحل: (١١٤-١١٧)].

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك؛ فإنه المنعم المتفضل به ابتداءً، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير {وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ}: أي ذبح على غير اسم الله، ومع هذا {فَمَنِ اضْطُرَّ} إليه أي احتاج من غير بغي ولا عدوان {فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته، ولله الحمد.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ} ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، و"ما" في قوله: {لِمَا تَصِفُ} مصدرية، أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ}: أي في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [سورة لقمان: (٢٤)] وقال: {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [سورة يونس: (٦٩-٧٠)].

قوله هنا: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ}، كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في أن "ما" مصدرية، {لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ}: أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ما المعنى على هذا التفسير؟، وما مراد ابن كثير بأن "ما" مصدرية؟ كيف يكون المعنى؟ {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ}، يقول: ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، واللسان: يعبر به عن الكلام، بمعنى لا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام، أي ما افترته ألسنتكم وادعته هذه الألسنة تقوّلاً على الله -عز وجل-، فقوله: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ} أي: لوصف ألسنتكم الكذب لا تقولوا عنه حلال وحرام، مثل البحيرة والسائبة، إلى غير ذلك، ويحتمل أن تكون "ما" موصولة، فقوله: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ}: يعني للذي تصف ألسنتكم الكذب، {هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ}، وهذه الآية وعيد لكل من قال على الله -عز وجل- بلا علم، ممن أفتى الناس ولم يتأهل، وتكلم في الحلال والحرام أو غير ذلك بغير علم، وسواء تعمد الكذب أو أنه وقع في ذلك على سبيل الخطأ، والله المستعان.

فائدة:

عبد الله بن كثير القارئ لا يعرف له اشتغال بالتفسير، والمنقول هنا عنه هو من التفسير، وفي كتب طبقات المفسرين لم يُذكر إطلاقاً، وفي كتب تراجم القراء لم يذكر له أي اشتغال بالتفسير، وهو معروف من القراء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السبعة، قارئ أهل مكة، لكن في بعض كتب التراجم يوجد آخر يقال له: عبد الله بن كثير السهمي، وآخر عبد الله بن كثير الداري القارئ، وكلاهما من أهل مكة، وكلاهما يروي عنه ابن جريج، الرواية السابقة عندنا من طريق ابن جريج عند ابن جرير في التفسير، فكلاهما يروي عنه ابن جريج، فتوقف فيه جمع من الأئمة، هل هو السهمي، وليس هو في الرواية عندنا، لكن عموماً في عدد من المواضع توقفوا فيه، هل هو هذا أو هذا؟، وبعضهم اختلف، يعني بعضهم يقول: فلان الذي روى الحديث الفلاني هو فلان، وفلان هو فلان، على كل حال فهناك اثنان كلاهما يقال له: عبد الله بن كثير ومن طبقة واحدة، ومن أهل مكة، ويروي عنهما ابن جريج، فالله أعلم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}[سورة النحل: (١١٨-١١٩)].

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، وإنما أرخص فيه عند الضرورة -وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر- ذكر -سبحانه وتعالى- ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج، فقال: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ}: أي في سورة الأنعام في قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [سورة الأنعام: (١٤٦)] **ولهذا قال ههنا: {وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}: أي فيما ضيقنا عليهم {وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}: أي فاستحقوا ذلك، كقوله: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا}**[سورة النساء: (١٦٠)]**، ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، {ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ}: أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا}: أي تلك الفعلة والزلة {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}.**

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ}: أجمل الله -عز وجل- هنا ما قصه على نبيه -صلى الله عليه وسلم- في التحريم في باب المطعومات، وفصله في سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ}، فالشاهد أن هذه الآية يستدل بها على أن سورة النحل نزلت بعد سورة الأنعام، وكلاهما من السور المكية، وسورة النحل نازلة بعد سورة الأنعام والدليل على هذا هذه الآية، وهذا يُحتاج إليه فيما يقال فيه بالنسخ، فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: {تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا} [سورة النحل: (٦٧)] الآية التي سبقت، وذكرنا أن بعضهم فسرها بالخمر، وقالوا: هذا قبل التحريم، فعلى هذا يكون ذكر هذه الآية على سبيل الامتنان، وفي سورة الأنعام الله -عز وجل- يقول: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [سورة الأنعام: (١٤٥)]، ولم يذكر شيئاً، والمشروب هو لون من المطعوم، بدليل قوله -تبارك وتعالى-: {وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} [سورة البقرة: (٢٤٩)] فسمى الشراب مطعوماً؛ لأنه يطعم، وفي قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا قال: {مِن بَعْدِهَا}: أي تلك الفعلة والزلة {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، {لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ}، وليس المقصود بالجهالة -كما هو معلوم- أنه فعله وهو لا يعلم أنه محرم؛ فإن مثل هذا الجهل بشرطه يكون مغتفراً؛ لأن من شروط التكليف العامة في كل تكليف من التكاليف العلم بخطاب الشارع، يعني بلوغ الخطاب، العقل وبلوغ الخطاب، هذا في كل تكليف، يضاف إلى ذلك الإسلام، وكلام أهل العلم في مسألة توجه الخطاب إلى الكفار بفروع الشريعة... إلى آخر ما هو معروف، وعلى كلٍّ فبلوغ الخطاب شرط، وذلك بشرطه أيضاً؛ لأن المفرط له أحكام أخرى، وإنما المقصود بالجهالة أن كل من عصى الله -عز وجل- كما قال السلف فهو جاهل، فلو عرف عظمة الله وقدره لم يجترئ على معصيته، والجهل كما يقال لقلة العلم أو نقص العلم أو ذهاب العلم، أو عدم العلم، كذلك يقال أيضاً للتعدي حينما يقول:

ألا لا يَجهلنَّ أحدٌ علينا...

ليس معناه أنه لا يعلم، وإنما المقصود يتعدى، فالشاهد أن الله -عز وجل- هنا قال: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ} كل من عصى الله فهو جاهل، قال: {ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ} في الآية الأخرى قال: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ} [سورة النساء: (١٧)] وكل من تاب قبل الغرغرة فقد تاب من قريب، فهنا قال: {ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ} الإصلاح هنا يشمل إصلاح الحال، ولهذا اشترط ابن القيم -رحمه الله- كما سبق في الكلام على التوبة أن من شروط التوبة عنده الإقبال على الله -عز وجل-، فجعل ذلك من علامات التوبة الصادقة، أن يُقبل الإنسان على الله وأن تتغير حاله، ويشتغل بالطاعات بدلاً من أن كان يشتغل بالمعاصي، وأما ما يتعلق بما ضرره وفساده متعدٍ فلا شك أن ما يكون ضرره متعدياً من الإفساد والتضليل أن هذا من شرط التوبة فيه الإصلاح، فالذي نشر بدعاً وأهواء وضلالات، وضلل الناس ونحو هذا، فهذا من شرط توبته أن يصلح ما أفسده، وأن يبين الضلال الذي بثه في الناس، الشاهد هنا قال: {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، {مِن بَعْدِهَا} هل المقصود من بعد ذلك العمل السيئ؟ أو المقصود {مِن بَعْدِهَا}: أي من بعد التوبة؟، يحتمل كما قلنا في الآية التي مضت، وعلى كل حال الله -عز وجل- ذكر هنا أن هؤلاء الذين عملوا هذا العمل السيئ تابوا وأصلحوا، {إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا}: أي من بعد تلك الفعلة التي تاب أصحابها منها {لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}، فهذان متلازمان، التوبة والعمل السيئ؛ فإن المغفرة التي رتبها الله -عز وجل- على ذلك هنا كانت بعد التوبة، والله أعلم.

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة النحل: (١٢٠-١٢٣)].

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء -عليهم السلام-، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا} فأما الأمة: فهو الإمام

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: {وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، وقال مجاهد: أمة: أي أمة وحده.

وقوله: {شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ}: أي قائماً بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}[سورة النجم: (٣٧)]: أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

في قوله هنا: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً} قال: **الأمة هو الإمام الذي يقتدى به**، وهذا التفسير من أحسن ما ذكر في تفسير هذه اللفظة في هذا المقام، وإلا فالأمة كما هو معلوم تأتي لمعانٍ متعددة في القرآن، وسبق الكلام على شيء من هذا، ومنهم من فسر الأمة بالعالم، {كَانَ أُمَّةً}: أي كان عالماً، ولا شك أن ما ذكره الحافظ ابن كثير: أنه الإمام الذي يقتدى به، أبلغ من مجرد العالم، فإن العالم قد لا يقتدى به، وقد لا يعمل بعلمه، وقد لا يكون أهلاً للاتباع، وبعضهم يقول: كان معلماً للخير، وبعضهم يجمع بين الأمرين فيقول: كان عالماً ومعلماً للخير، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أبلغ أيضاً من هذا، فإن الإنسان قد يكون معلماً للخير ولكنه ليس بأهل للاقتداء، فما كل من علَّم يصلح أن يقتدى به، وهكذا قول من قال: يؤمُّه الناس ليأخذوا عنه، فإن هذا يرجع إلى بعض ما سبق، إذا كان معلماً للناس الخير باذلاً للعلم، فإن معنى ذلك أنه يرجع الناس إليه ليأخذوا عنه، فهذه المعاني كما ترون هي معانٍ جزئية، فالسلف يفسرون الشيء أحياناً ببعض معناه، والأحسن أن يفسر اللفظ بما هو أوسع من ذلك وما يشمل هذه جميعاً، فالأمة هو الرجل الجامع لخصال الخير التي تفرقت في غيره، ومن هنا صار محلاً للائتساء والاقتداء، فهو عالم معلم للخير يرجع الناس إليه فيما نابهم، وينتفعون بعلمه، إلى غير ذلك من المعاني التي ترجع إلى هذا، الرجل الجامع لخصال الخير التي تفرقت في غيره يقال له: أمة، فتجد من الناس من يتصف بالعلم، ومن الناس من يتصف بنفع الناس، ومن الناس من يتصف بصفات أخرى، فهذا جامع لخصال الخير التي تفرقت، فصار أمة وحده بهذا الاعتبار، فالقرآن الأحسن أن يفسر بهذه الطريقة، {قَانِتًا} القنوت سبق الكلام عليه وأنه يأتي لمعانٍ متعددة، {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ} [سورة الأحزاب: (٣٥)]، {وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ} [سورة الأحزاب: (٣١)]، وشيخ الإسلام ألَّف رسالة في قنوت الأشياء لله -عز وجل-، وحاول أن يستقرئ هذه اللفظة في القرآن، وما دلت عليه، والنتيجة التي خرج بها أن القنوت هو دوام الطاعة، وهذا الذي ذهب إليه أيضاً ابن القيم -رحمه الله-، دوام الطاعة يقال له: قنوت، فإن الذي يطيع فترة ثم بعد ذلك يفتر وينقطع، لا يقال له: قانت، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أفضل الصلاة طول القنوت))[1]: يعني طول القيام، وهكذا.

وقال هنا: {كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ}، قال: **القانت الخاشع المطيع**، هذا يحتاج إلى أن يقيَّد كما سبق، المطيع الذي يديم الطاعة، وهذا المعنى -أي أنه هو المطيع- هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-.

قال: والحنيف: **المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد**، هذا مثال يصلح على التفسير باللازم، فالتفسير يكون بالمطابق أو بدلالة التضمن، أو باللازم، وقد يكون بأنواع أخرى، وهذا مثال على التفسير باللازم، من حيث إن الحنيف: هو المقبل على الشيء، فهو حنيف: أي مقبل على ربه -تبارك وتعالى- بالتوحيد

---

[1] رواه مسلم: (٥٢٠/١) باب أفضل الصلاة طول القنوت، برقم: (٧٥٦) من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاستجابة والإنابة، فالإقبال على الشيء يقال له: حَنَفٌ، ولهذا يقال فيمن تكون إحدى رجليه مقبلة على الأخرى: أحنف، ولهذا قيل للأحنف بن قيس -رحمه الله-: الأحنف لهذا السبب، يقال: إن أمه كانت ترقصه وهو صغير وتقول:

والله لولا حَنَفٌ في رجله ** ما كان في فتيانكم من مثله

فهذا أصله بمعنى الإقبال، إقبال إحدى الرجلين على الأخرى، ولازم ذلك الميل، فبعضهم فسر به الحنَف، قال: هو الميل عن الشرك، والحنيف: هو المائل عن الشرك إلى الإسلام والتوحيد، تفسير باللازم، وإلا فأصله الإقبال على الشيء، ومِن لازم هذا الإقبال وجود هذا الميل والانحراف، فإذا فسرناه بلازمه قلنا بأنه مائل ومنحرف عن كل ملة وشرعة ودين سوى الإسلام، سوى التوحيد، هذا وجه التفسير هنا بالميل، وكثير من المفسرين يذكرون هذا، ويصح تفسير الشيء باللازم، وليس هذا من قبيل الخطأ إطلاقاً، وإذا تأملت في الأقوال المنقولة عن السلف في التفسير تجد جملة منها هي من قبيل التفسير باللازم.

وقوله: {اجْتَبَاهُ}: أي اختاره واصطفاه كقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [سورة الأنبياء: (٥١)]، **ثم قال: {وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضيٍّ.**

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}: أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة {وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}.

الحسنة: الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا قال: **أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته**، هذا من أجمع ما يكون في التفسير، وهذه على كل حال تجدها كثيراً في هذا الكتاب المبارك، أعني تفسير ابن كثير -رحمه الله-، فبعضهم يفسر الحسنة {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} يفسرها بالخصلة أو الحالة الحسنة، لكن ليست هذه العبارة في الإبانة كعبارة الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، بل بعضهم يفسرها بأضيق من هذا، يقول: الحسنة هي الولد الصالح، فإن الله -عز وجل- قال: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [سورة مريم: (٤٩)]، فيقولون: هذه هي الحسنة، وكذلك أيضاً بعضهم يقول: الذكر الحسن في الدنيا، {وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [سورة مريم: (٥٠)]، وكذلك الله -عز وجل- أخبر عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بمثل هذا في مواضع، فالحاصل أن ابن جرير -رحمه الله- يقول: الذكر الحسن هو الحسنة، {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [سورة الشعراء: (٨٤)]، أي يذكر بالخير، كما هو واقع عبر هذه القرون والأجيال المتعاقبة، وبعضهم فسر ذلك بهذا وهذا، يعني بالولد الصالح والذكر الحسن الجميل، وبعضهم يفسر هذا بالنبوة، وبعضهم يقول: الصلاة عليه في التشهد -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: القبول عند أهل الأديان، فأهل الأديان جميعاً يقبلونه ويعظمونه، ولذلك تجد اليهود يقولون: إنه منهم، والنصارى يقولون: إنه منهم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا} [سورة آل عمران: (٦٧)] والشاهد أن هذه العبارات التي قالها مَن قالها من السلف -رضي الله عنهم- ليست كعبارة ابن كثير.

وقال مجاهد في قوله: {وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}: أي لسان صدق، وقوله: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}: أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنّا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأنبياء {أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، كقوله في الأنعام: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام: (١٦١)].

الاتباع لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: بعضهم يقول: في أصل الدين، يعني في التوحيد، والله -عز وجل- لما ذكر الأنبياء الذين جاءوا بعده من عقبه، فهو أبو الأنبياء -عليه الصلاة والسلام-، لما ذكرهم قال: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [سورة الأنعام: (٩٠)]، فالاقتداء بالنسبة لشرائعهم، فالله -عز وجل- قال: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [سورة المائدة: (٤٨)]، فالشرائع مختلفة، وأصل الدين واحد، فمن أهل العلم من قال: المقصود اتباع إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- في التوحيد، وأصل الدين، ومن قالوا: هو الاقتداء به في كل شيء أخذوا من هذا، قالوا: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعث بالحنيفية، وقالوا أيضاً: إن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ، فما لم ينسخ فنحن مأمورون بالاقتداء به فيه، وبعضهم خص ذلك بالمناسك، وهذا تضييق للمعنى؛ فملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أوسع من هذا، ولكن في قوله تعالى: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [سورة البقرة: (١٢٥)] من فسره بغير المقام المعروف قال: مقام إبراهيم مفرد مضاف، يعني مقامات إبراهيم، وذلك باتباعه في المناسك، في منى وعرفة ومزدلفة وما أشبه ذلك، والمقصود بالمصلَّى يعني المتعبَّد، وبعضهم كابن جرير يقول: الاتباع لإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} في التبري من المشركين ومن معبوداتهم، والتدين بدين الإسلام، وعلى كلٍّ النبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور باتباع ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- بعث بشريعة شاملة كاملة هي أوسع ما شُرِّع وأنزل على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- إمام الحنفاء فيُتّبع في دعوته إلى التوحيد والبراءة من المشركين، ومن معبوداتهم.

فائدة في قول: أبو الأنبياء:

إبراهيم أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده، وليس الذين قبله.

ونوح -عليه الصلاة والسلام- يسمونه بآدم الصغير؛ لأن كل البشر الذين جاءوا بعد نوح -عليه الصلاة والسلام- هم من ذريته، {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ}[سورة الصافات: (٧٧)]، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- الأنبياء الذين جاءوا من بعده كانوا من ذريته، عدا لوط فإنه كان معاصراً له، أما الذين قبله فليس الكلام في هذا، وإنما المقصود أن كل من جاء بعده فهو من ذريته من ولد إسحاق إلا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن هؤلاء من الكثرة بحيث قيل له: أبو الأنبياء، وليس كل الأنبياء حتى الذين قبله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة النحل (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: ثم قال تعالى منكراً على اليهود: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[سورة النحل:١٢٤].

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى -عليه السلام- فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمّل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد -صلى الله عليه وسلم- إذا بعثه، وأَخْذِه مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة، ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال: إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول لله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غد))[١] لفظ البخاري، وعن أبي هريرة وحذيفة -رضي الله تعالى عنهما- قالا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلائق))[٢] رواه مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أن الله -عز وجل- شرّع لهم على لسان موسى -صلى الله عليه وسلم- يوم الجمعة أن يكون عيداً لهم،

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، برقم (٨٣٦)، ومسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٥).

٢ - رواه مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، برقم (٨٥٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتركوه وأعرضوا عنه، واختاروا يوم السبت، فعلى هذا يكون هو الاختلاف المراد بقوله تعالى: {عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ}، واختلفوا على موسى -صلى الله عليه وسلم-، وخالفوه، ولم يعملوا بمقتضى ما شرّعه لهم، وبعض أهل العلم يقول: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ} بمعنى أي فرض تعظيمه، وهذا لا يخالف القول الذي ذكره ابن كثير، {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ} فرض عليهم تعظيمه حينما تركوا يوم الجمعة، فأُلزموا بمقتضى اختيارهم وهو يوم السبت، فصار ذلك اليوم لا يعملون فيه ولا يشتغلون بشيء من أشغالهم في الكسب وأعمالهم الدنيوية، فأُلزموا بمقتضى هذا، وصار يحْرم عليهم العمل في يوم السبت، والنصارى لشدة بغضهم لليهود -وهم من بني إسرائيل-، وللعداوة التي بين اليهود وبين النصارى ترك النصارى العمل بالتوراة، وبقوا بلا شريعة، فوضعوا لهم كتاباً سموه "الأمانة الكبرى"، فيه القانون، وصاروا يتحاكمون إليه بعد أن تركوا العمل بالتوراة، وقوله: {عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، من أهل العلم من يقول: {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}: أي وبال السبت، وبال هذا اليوم، وما وقع من المسخ بسببه لبعض بني إسرائيل، مثل القرية التي كان أهلها يعدون في السبت، فمسخوا بسبب هذه العدوان لما ابتلاهم الله -عز وجل-، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا هو الأقرب في المعنى {إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، وبعد ذلك أُقروا عليه، وفُرض عليهم تعظيمه.

وفي قول ابن كثير -رحمه الله-: "**لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة، يعني يوم الجمعة**"، يوم الجمعة هو اليوم السادس بأي اعتبار؟ باعتبار أول يوم صار فيه الخلق هو يوم الأحد، فالجمعة هو السادس، فاليهود اختاروا يوم السبت باعتبار أنه لم يحصل فيه خلق، ويوم الجمعة هو المناسب لأن يكون عيداً؛ لأنه اليوم الذي فيه اكتمال الخلق، وأما النصارى فاختيارهم ليس له معنى أصلاً، فيوم الأحد أول يوم في الخلق، والله المستعان، السبت يأتي بعدة معانٍ: منها القطع، يعني ينقطعون من أعمالهم وأشغالهم، فيكون هذا اليوم بالنسبة لهم يوم إجازة، وهذا في دينهم، ولكن المسلمين -في التعليق على اقتضاء الصراط المستقيم- لا يجوز لهم أن يتخذوا يوم الجمعة يوماً يتفرغون فيه من كل أشغالهم، بمعنى لا يعملون في شيء من عمل الدنيا، وليس معنى هذا أنه لا يكون إجازة رسمية، لأن الناس يحتاجون إلى هذا، ليصلوا الجمعة، ولكن الذي عند اليهود هو أنه لا يذهب إلى متجره ولا يبيع ولا يشتري ولا يصطاد ولا يزاول شيئاً من أعمال الدنيا، فينقطعون تماماً، فهذا هو الذي لا يجوز، وفعل ذلك يعتبر مضاهاة لليهود.

{ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[سورة النحل:١٢٥].

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة {وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكِّرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: {وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [سورة العنكبوت:٤٦] الآية، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهارون -عليهما السلام- حين بعثهما إلى فرعون في قوله: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طـــه:٤٤].

وقوله: {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ} الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [سورة القصص:٥٦]، {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [سورة البقرة:٢٧٢].

قوله: {ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} قال: "**يعني بالكتاب والسنة**"، وفسر الموعظة الحسنة "**بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس**"، والمعنى -والله أعلم- أعم من هذا، وابن القيم -رحمه الله- له كلام جيد خلاصته أنه يرى أن الدعوة تكون على مراتب بحسب أحوال الناس، فالقابل المستجيب يدعى بالحكمة، والذي عنده شيء من التباطؤ والغفلة يدعى بالموعظة الحسنة، ويحتاج إلى حفز وحث، فيذكر له ما يرغبه أو ما يرهبه، يحتاج إلى ترغيب وترهيب من أجل أن يُقبل على العمل الصالح، ومن كان عنده شبهة، أو أمور عارضة تحتاج إلى كشف وإزالة فمثل هذا يجادل بالتي هي أحسن، ولو قيل بأن الآية أيضاً أعم من هذا فإن ذلك لا يبعد، باعتبار أن الحكمة مطلوبة أصلاً مع الجميع، ولهذا جاءت الباء معها {ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ} أي: مستصحباً للحكمة، فالحكمة لا تفارق الدعوة إلى الله -عز وجل- أياً كان حال المدعو، سواء كان مستجيباً أو غير مستجيب، والحكمة تقال للإصابة بالقول والعمل، وتكون بوضع الشيء في موضعه، وإيقاعه في موقعه، وهذا يُحتاج إليه في كل أحوال الدعوة إلى الله -عز وجل-، فإن الدعوة يحتاج الناس معها إلى الوعظ، الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، ووصف الموعظة هنا بالحسنة؛ لأن الموعظة قد تكون شديدة، تنفر منها القلوب، فلابد من مراعاة هذا فيها، {وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}، وقال: {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، وكذلك إذا احتيج إلى المجادلة فتكون بالتي هي أحسن، يعني بالطريقة التي هي أحسن، ولم يقل: بالطريقة الحسنة، وإنما جاء بأفعل التفضيل {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، وذلك أن المقصود من الدعوة إلى الله -عز وجل- بيان الحق، وأن يقبله الناس، ويقبلوا عليه، وينقادوا له، فهذا يجب أن يقدم بطريقة وأسلوب تتقبلها قلوب هؤلاء الناس، لا تقدم لهم الدعوة بطريقة تنفرهم، فيزهدون في الحق ويرغبون عنه، ولهذا جاء عن بعض السلف: ما رفقتَ بأحد إلا قبل منك.

ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {إِنّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلّ عَن سَبِيلِهِ} "أي: **قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب**"، باعتبار أنه {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} فالله أعلم، يعني لا تذهب نفسك عليهم حسرات، وهناك معنى آخر وهو أنه ليس من شغلك الاشتغال بما في قلوبهم ونيّاتهم، وهل هؤلاء فعلاً قد أقبلوا على الحق رغبة فيه، أو لمعنىً في نفوسهم، أو لطمع من الدنيا، كما يقوله الكفار لأتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؟، ولهذا كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يجيبونهم بأن ذلك ليس من شأننا، وإنما الذي يطلع على القلوب ويحاسب الناس على أعمالهم هو الله -عز وجل-، {وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} [سورة هود:٢٩]، فالداعية إلى الله -عز وجل- يقدم الدعوة للناس وليس

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من شغله وليس من عمله أن يشتغل بما في نفوس هؤلاء الناس، وأن هذا ما قبل وما استجاب إلا لشيء من الدنيا أو لمقصود سيئ أو نحو هذا، فهذا ليس من عمله، وإنما هو كالمطر، ينشر الخير، ويعلم الناس، ويدعوهم إلى الله -عز وجل-، ولا يشتغل بما وراء ذلك، وما تنطوي عليه القلوب لله -تبارك وتعالى-.

{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}[سورة النحل:١٢٦-١٢٨].

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: {فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ} إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله، وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم، واختاره ابن جرير.

وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا: يا رسول الله لو أذن الله لنا لا نتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

في قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ}، نقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن جماعة من السلف: "**إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله**"، هذه مسألة معروفة في الفقه، تسمى مسألة الظفر، ولها صورتين، الصورة الأولى: لو أن الإنسان وجد ماله عند من غصبه أو ظلمه، أو جحده، استعار منه متاعاً ثم جحده، ووجد عين المال، فهل له أن يأخذه خلسة؟ هذه صورة، والصورة الثانية: لم يجد عين المال، لكن هذا إنسان يعمل أجيراً عند أحد مثلاً، وظلمه ولم يعطه أجرته، ووجد مالاً لهذا الإنسان الذي جحده، فهل له أن يقتص ويأخذ بقدر ما أخذ منه أو لا؟ هذا الإنسان اشترى شيئاً ولم يعطه الثمن، ثم بعد ذلك استطاع أن يضع يده على شيء من ماله هل له أن يأخذ منه أو لا؟ هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، منهم من يقول: أما إذا وجد عين المال فيأخذ المال، لكن لو لم يجد عين المال، فهل له أن يأخذ من ماله أو لا؟ من أهل العلم من يقول: لا يأخذ؛ لأن هذا ليس بعين ماله، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك))[٣] فقالوا: هذه خيانة، قابل خيانته بخيانة، وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} يدل على هذا، وذلك مشروط بأن لا يلحق هذا الإنسانَ تهمةٌ، أو فضيحةٌ، فيوقف على ذلك، ثم يخرج بعد هذا بصورة سارق، فإن كان يترتب عليه هذا فلا يفعل، لكن إن أمن هذه المفسدة قالوا: يأخذ، هذا قال به جماعة من السلف، والمسألة خلافية مشهورة، والمعنى أوسع من هذا، وقوله: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} حتى في الجنايات مثلاً، المماثلة في القصاص، لو أنه قتله دهساً بالسيارة عمداً، يقتل بهذه الطريقة، وليس المقصود أنه يدهسه هو من عند نفسه، وإنما يكون ذلك عن طريق السلطان؛ لئلا تكون أمور الناس فوضى، فيُسلَّم له فيقتل بنفس الطريقة، هذا قال به جماعة من أهل العلم، واستدلوا على

---

٣ - رواه أبو داود، كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، برقم (٣٥٣٤)، وبرقم (٣٥٣٥)، والترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في النهي للمسلم أن يدفع إلى الذمي الخمر يبيعها له، برقم (١٢٦٤)، وأحمد في المسند (١٥٠/٢٤)، برقم (١٥٤٢٤)، وقال محققوه: مرفوعه حسن لغيره، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤٢٣)، وفي صحيح الجامع برقم (٢٤٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا بما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث فعل بالعرنيين الذين فعلوا براعي إبل الصدقة، سملوا عينيه، ففعل بهم كما فعلوا، ورض رأس يهودي بين حجرين؛ لأنه رض رأس يهودية، فقالوا: القصاص يكون بالمثل، إلا إن كان بشيء محرم، مثل لو أنه فعل الفاحشة بصبية فماتت، فلا يكون القصاص بمثل هذا، أو سقاه المسكر حتى مات، فلا يفعل به مثل هذا، لكن إن قتله بحجر قتل بحجر، وإن قتله بالسيف قتل بالسيف، قتله بسلاح آخر يقتل بمثله، وهذه الرواية التي ذكرها عن ابن زيد كما ترون هي من قبيل المرسل، كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين، فأسلم رجال...، وهذه الرواية لا تصح.

وقوله تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ} تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا يُنال إلا بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: {وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}: أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك {وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ}: أي، غمٍّ {مِمَّا يَمْكُرُونَ} أي: مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ}[سورة الأنفال:١٢]، وقوله لموسى وهارون: {لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [سورة طه:٤٦] وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- للصديق -رضي الله تعالى عنه- وهما في الغار: ((لا تحزن إن الله معنا))[٤]، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [سورة الحديد:٤] وكقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا} [سورة المجادلة:٧]، وكما قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً}[سورة يونس:٦١] الآية، ومعنى {الَّذِينَ اتَّقَوْا} أي: تركوا المحرمات، {وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم، ويكلؤهم وينصرهم، ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم.

آخر تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة، وصلى الله على محمد وعلى آهل وصحبه وسلم تسليماً.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، برقم (٣٤١٩)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة ويقال له حديث الرحل، برقم (٢٠٠٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com